

□□ ان العمر لا يحتسب بالسنين، ولكنه يحتسب بالاحساس.. فقد تكون فى الستين وتحس انك فى العشرين، وقد تكون فى العشرين وتحس انك فى الستين!!
«احسان»

شارع «رمسيس» بضاحية مصر الجديدة
وخرج الخادم النوبى من باب «القيلا»
الانيقة، واخذ يدير عينيه فى الشارع الهادى،
الصامت، وقد بدأت نسامم العصر الطرية تعزف
على الاغصان لحن الغروب، وتزف يوما آخر إلى
ليل آخر.

وقطب الخادم ما بين حاجبيه، وتمتم ببعض الفاظ لم يحاول
هو نفسه ان يضع لها معنى، ثم ضرب الهواء بقبضته كأنه
يعلن تمرده على الدنيا وعلى القدر، ثم جذب من صدره نفسا
عميقا أعلن به استسلامه للدنيا وللقدر.. ثم سار بخطى واسعة
حتى وصل إلى شارع «البارون».. الشارع الذى لا تمل القلوب
جوانبه، ولا يعرف العشاق له نهاية إلا اذا اصطدموا بعسكري
البوليس!

واسرع الخادم فى خطاه وهو يبحث بعينيه فى الشارع
الطويل المنبسط امامه.. ثم اخذ يعدو عدوا خفيفا وشفقاه
الغليظتان تخبطان احدهما بالآخرى، كأنهما «صاجات» بانع
العرقسوس، ويخرج من بينهما هذه الالفاظ التى لا يحاول هو
نفسه ان يضع لها معنى.

الإخراج الفنى :

أحمد السعيد

الغلاف بريشة الفنان :

عمرو فهمى

إلى ان لمحا من بعيد تتأرجح فوق دراجتها.
وبدا يعدو بكل قواه وقد أمسك طرف «قفطان» الابيض بيد،
واخذ يلوح باليد الأخرى فى الهواء، وهو يصرخ:
يا ست عليه.. يا عليه هانم!

والتفتت عليه إلى مصدر الصوت، وقد تهذبت خصلة من
شعرها الذهبى فوق جبينها، وعندما لمحتة ضحكت ضحكة
تجمع فيها صباها وقلبها الخالى، ثم ادارت رأسها عنه، ومالت
فوق دراجتها واعملت فيها ساقياها بكل ما لهما من قوة..
واخذت تبتعد عنه وهى تلتفت إليه بين الحين والحين وتضحك
ضحكتها التى تجمع بين صباها وقلبها الخالى.

واستمر الخادم النبوى يعدو وراءها وهو يناديها ويلوح
بذراعه، إلى ان تقطعت انفاسه، فوقف، ثم جلس على الرصيف
وقد وضع يده على صدره كأنه يخشى على ضلوعه من ان
تحطمها رتاه الثائرتان.. واخذ يتمتم وقد احنى رأسه وتدلى
منه لسانه اللاهث:

حرام عليك يا ست عليه.. ده موش كلام يا ست هانم!

وفجأة قفز من فوق الرصيف وهو يصرخ فرعا:

يا سيدى عبدالرسول!

كانت عليه قد عادت إليه فوق دراجتها، واتجهت نحوه
باقصى سرعتها حتى كادت تدهمه لولا ان انحرفت عنه فى
اللحظة الأخيرة.. واغرقت عليه فى الضحك.

وغضب الخادم النبوى واخذ يزمجر قائلا:

اسمع يا ست هانم، انا ما احبش الهزار بقاعك ده.. كناية

قطعت نفسى.. باللا افضل على البيت، الست الكبيرة عايزك
حالا!

وتركته عليه وهى تضحك، واتجهت إلى البيت وهى تداعب
باصابعها اجراس دراجتها، بينما عادت الابتسامة إلى شفتى
الخادم النبوى، وقال من بين اسنانه البيضاء اللامعة:

يا سلام على دى ست.. ربنا يخليه يا رب!

ودخلت عليه إلى حديقة الدار وهى لا تزال تتأرجح فوق
دراجتها، ثم قذفت الدراجة فوق حاجز السلم الكبير، وصعدت
الدرجات اثنتين اثنتين كأنها غزال انتشى بشبابه وغره صحو
الربيع، او كأن الصبا قد ضج فى عروقه حتى لم تعد تطيق
ان تستقر على الارض!

ورفعت صوتها بمجرد ان وجدت نفسها داخل البيت:

مامى.. مامى!

واخذت تفتح كل الابواب التى تصادفها وتصرخ فى كل
حجرة: «مامى.. مامى» وكانت هذه هى عاداتها كلما دخلت
البيت، رغم انها تعلم دائما اين تجد امها.. فى هذه الحجرة
الصغيرة المطلة على الحديقة، والتى تمتاز عن حجرات البيت
كله بهدونها وبساطة اثاثها، وبالصور الفوتوغرافية الكثيرة
المعلقة فوق جدرانها، تتوسطها صورة كبيرة بالزيت لرجل
وقور عسن جلل الشيب رأسه.. كان يوما رجل البيت قبل ان
يتوفاه الله.

وكانت الأم شابة لا تتجاوز الخامسة والثلاثين، اخذت عنها
ابنتها بياض بشرتها المشرب بحمرة خفيفة كأنها قطرات من
نهر الشباب سكبتها يد الله فى تمثال عبقرى من المرمر،

واخذت عنها شعرها الذهبي الغزير الذي تجمعه في صفيحة تلقها فوق رأسها وكأنها جمعت ثروة الدنيا كلها وصورتها في سبيكة واحدة، واخذت عنها عينيها اللتين تجمعت فيهما كل الألوان حتى تحتاو خلالهما بين الأزرق والأخضر والرمادي والغسلي، واخذت عنها شفيتها ووجنتيها وقوامها المشوق للقفوف المكتنز في غير سمنة.

كانت عليّ صورة منقولة عن أمها. ولكن الأم كانت تعيش دائما وراء غلالة قاتمة من الحزن الصامت، حتى تبدو بين أهدابها دائما آثار دموع لم تتسكب، ويبدو على وجهها ملامح الجد كأنها مقدمة دائما على امر خطير، أو كأنها تركت وراءها أمرا خطيرا وحتى لا يذكر احد انه رآها مرة تضحك ضحكة كبيرة طليقة، انما كانت غاية ما تستطيعه ان تبسم ابتسامة خفيفة لا تكشف عن اسنانها.. وكانت دقيقة في اختلاطها بالناس، لا تزور احدا إلا بحساب، ولا تستقبل احدا إلا بحساب، ولكن شخصيتها كانت دائما في كل مجال، فالذين يعرفونها كانوا يتباهون بها، والذين لا يعرفونها كانوا يتمنون ان يعرفوها.. والجميع يحترمونها فلم يتناقل عنها احد كلمة سوء.. ولم يؤخذ عليها ابدا مظهر مشين يجمعها بباقي سيدات الطبقة الثرية اللاتي يتناقل سيرتهن الناس.

ولم يكن احد يعرف سر هذه الغلالة القاتمة التي تمشير وراءها، ولا سر هذا التحزن انصامت أنذى يحيط بها.. فقد كانت دائما هكذا.. منذ ان يتذكر الناس انهم رأوها، وربما نسب البعض هذا الحزن وهذا الجد الى نوع من الكبر والتعالي، يرجع إلى اصلها الشركسي، ولكنها لم تكن متكبرة

ولا متعالية، ولم تكن تتباهى ابدا بأصلها الشركسي. ثم لما مات عنها زوجها، لم يتغير فيها شيء، ولم يبد ان الصدمة قد اقتلعت منها شيئا، ولا يتذكر احد انه رآها يوم الوفاة تنهار أو تصرخ أو «تنحدف» فوق نعش الراحل.. كل ما حدث هو ان الغلالة القاتمة قد ازدادت قتوما، وان الحزن الصامت قد ازداد صمتا.. ثم ازداد حرصها في اختلاطها بالناس، واعتكفت معظم ايامها في حجرتها الصغيرة الهادئة المطلة من الحديقة، تطلق ذهنها طويلا فيما لا يدريه احد، ثم تنتبه لتدبير الثروة العريضة التي تركها لها زوجها.

ولابد ان الزوج قد ترك وراءه ثروة عريضة.. ولكن احدا لم يكن يدري مدى هذه الثروة، ولا ما حدث لها بعد الوفاة، ولا كيف كانت تدبرها الأم الشابة.. انما الواضح امام الناس ان شيئا من مظاهر هذا الثراء لم يتغير.. فالبيت الكبير لا يزال كما هو، وعدد الخدم كما هو، والسيارة الكبيرة لا تزال تنتظر امام الباب، وقد زاد عليها سيارة صغيرة اشترتها الأم لابنها عادل الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة.

وكان عادل صورة عن أبيه، اسمر اللون، طويل القامة، مقبول العضل.. ولكنه اخذ عن امه صمته ومظهر الجد الذي يبدو على وجهه، ويبدو به اكبر من سنه.. وكان محبوبا محترما من «شلة» شبان مصر الجديدة وهي «شلة» لم تكن تحترم احدا ولا تضع لعبثها حدا، ولا ترجم فتاة تمر بها، بل ان افرادها كانوا يسرقون السيارات ويخطفون حقائب السيدات لا للسرقة نفسها ولا للحاجة إليها، انما مجرد الشقاوة والتباهى بتقليد العصابات الاميركية التي تمثلها افلام السينما.. ولكنهم

كانوا جميعا يحترمون عادل، ربما لقوته وتفوقه في الألعاب الرياضية، وربما لجده وصرامته، وربما لترفعه عن الاشتراك في عبثهم.. وكانوا يحترمون اخته عليه من أجله.

وكانت عليه في الخامسة عشرة من عمرها يزيد عليها بضعة شهور.. وكانت الضحكة الوحيدة في هذا البيت الكبير، والضجة الوحيدة التي تثور فيه، والصوت الوحيد الذي يبعث فيه المرح والحياة والشباب.. كانت هي التي تملأ البيت بصديقاتها وهي التي تتحدث دائما في التلفون، وهي التي تخلق للمشاكل مع السفرجى والطباخ والسائق، وهي التي تحل هذه المشاكل.. كانت تتكلم دائما وتضحك دائما، وتستطيع بحيويتها ان تقنع اخاها ان يصحبها إلى حمام السباحة وإلى السينما، وكانت مجنونة بركوب الدراجات.

وقد احبها الجميع حتى لا يطيقون البيت بدونها.. احبوا فيها طيبة القلب، وروعة الصبا، وسرعة الخاطر، وطهارة الخلق.. وافسحت لها امها مجالا واسعا تطلق فيه صباها وحيويتها، ولكنها كانت دائما تحت رقابتها، ودايما في حمايتها.. وكانت عليه تعتبر هذه الرقابة امرا طبيعيا فلم تحاول ابدا ان تخفى عن امها شيئا، وكانت تعتبر هذه الحماية امرا لا بد منه لا تستطيع ان تعيش بدونها، فلم تحاول ابدا ان تثور على حماية امها أو تتعد عنها.

كانت تعبد امها وشقيقها.. وتؤمن بكل ما يريد انه لها وكل ما يريد انه منها.

وفتحت عليه باب الحجرة الصغيرة، وصاحت كما كانت

تصيح منذ دخلت البيت:

مامى.. مامى!!

واستقبلتها امها واقفة في منتصف الحجرة، قائلة وهي تمد ذراعها إليها:

اهلا بالعروسة!

ولم تنتبه إلى لفظ «العروسة»، بقدر ما تعجبت لأنها وهي تضمها إلى صدرها وتمسح بيدها على شعرها، فلم تكن من عادة امها ان تضمها هكذا أو تمسح بيدها على شعرها، أو تقبلها إلا في المناسبات.. كان حنانها حنانا قويا لا يضعف ولا يلين امام هذه المظاهر.. حنانا تستطيع ان تحتسى به وانت واثق انه لن ينهار فوقك!

وربما احسست عليه وهي بين ذراعي امها، بقلب الأم وهو يضرب ضربات حزينة كنفقات دف في يد ضعيفة انهكها الحزن، وربما احسست كأن دموعا تتساقط في صدر الأم الشابة كقطرات الندى التي تنبئ: بيوم مطير.. ولكنها عذبة! ربة هت عينها إليها لم تر سوى ابتسامة من هذه الابتسامات النادرة التي تزور شفتي الأم بين الحين والحين.

وقالت عليه متسائلة:

خير يا ماما؟!

وقالت الأم وكان الكلمات ترتبك فوق لسانها:

خير يا عليه.. بس أنا ما كنتش واخدة بالي انك كبرت كده:

وضحكت عليه:

ده أنا كبرت من زمان.. ومن زمان باحاول اقتنك اني كبرت

ومن حقى البس كعب على!

وكان الكلمات ازدادت ارتباكاً فوق لسان الأم، فقالت:
بس ما كنتش عارفة انك كبرت لدرجة انك تتخطى ويجيك
عريس!

وصرخت عليه فرحة وكانها فوجئت بثوب جديد:

اتخطبت! صحيح يا ماما اتخطبت!

ايوه.. عزيز بك بيكلمنى عنك بقاله شهر وزيادة!
أونكل عزيز؟!

ولا أونكل ولا حاجة.. روجى دلوقت خدى حمامك والبسى
الفسقان الروز الجديد علشان تستقبلى معايا الضيوف اللى
جايين.

ولم تفكر عليه طويلاً فى عزيز بك الذى جاء إليها خاطباً، أو
«أونكل عزيز»، كما اعتادت ان تدعوه منذ عرفته صديقا
للمرحوم والدها، وإنما استقر فى ذهنها شيء واحد، هو أنها
قد خطبت.

واتسعت ابتسامتها، وارتسمت على وجهها صور من الفرح
الصبياني البريء، وأخذت تتساق وراء خيال واسع.. كيف
ستبلغ النبأ إلى صديقاتها.. وكيف ستحتفل بإعلان الخطبة،
وتصورت الخاتم المقدس فى اصبعها، وتصورت الثياب
الجديدة التى ستغمرها، وربما استعادت بخيالها الأفلام
السينمائية التى شهدتها والتى اعلنت فيها خطبة البطلة إلى
البطل، ثم اطمأنت إلى انه سيكون من حقها أن تضع فى
قدميها حذاء ذا كعب عال، ثم ضحكت بصوت مسموع وهى
تخيل وقع المفاجأة على صديقتها ليلى.

وخرجت من الغرفة تحجل فوق قدم واحدة وتهز رأسها

يسرة ويمنة فى دلال الصبا، وخيالها يرفرف حولها.

وسمعت صوت الأم من ورائها حاسماً معاتباً:

امشى كويس يا عليه.. احنا اتفقنا انك خلاص كبرت!

واعتدلت فى مشيتها دون ان تفقد ابتسامتها واتجهت إلى
غرفتها وبدأت تخلع ثيابها استعداداً لدخول الحمام، ثم توقفت
وتسللت خارج الغرفة إلى حيث آلة التليفون وعادت بها، وبدأت
تدير رقم صديقتها ليلى.

وعندما سمعت صوت صديقتها سحبت ابتسامتها تظاهرت
بمظهر الجد:

انا أسفة يا ليلى، مش حاقدرك اكلمك النهارده.. مشغولة
قوى!

.....

- عندنا ضيوف مهمين خالص..

.....

اصلى اتخطبت.. عقبالك!

وسمعت صرخة المفاجأة من صديقتها ليلى، فوضعت كفها
على شفتيها حتى لا تنفجر ضاحكة، ثم قالت كأنها جد
مشغولة:

بعدين اقوك!

وقامت تدخل الحمام وهى تغنى أغنية فرنسية مشهورة:

«انى انتظرك صباحاً ومساءً..»

«انتظر دائماً عودتك..»

«انتظرك كما تنتظر الطيور الصغيرة فى عشا..»

ولم يكن لهذه الاغنية وقع في قلبها ولا صلة بخيالها ولم يكن لاي اغنية هذا الوقع، انما كانت تغنى ما تسمعه من الاغانى، دون ان يكون لغنائها اثر يتعدى شفقتها وانيتها. ولا معنى ابعد من معنى الموسيقى المجردة.. كان قلبها خاليا كصفحة النور، وكان خيالها انقى من انفاس الملائكة.

حتى هذه النزعات العاطفية البريئة التي تخط على قلوب الفتيات في مثل سنها، لم يكن لها منها نصيب، ولا سابق تجربة.. فلم تكن تعي شيئا من نظرات الاعجاب التي يلاحقها بها الفتيان وهي تتأرجح فوق دراجتها، ولم تكن تلقى بالا إلى كلمة ذات معنى يتقرب بها فتى إليها، ولم يثر فيها يوما احساس بانوثتها، الا ما تقتضيه الانوثة من الوقوف امام المرأة بين حين وآخر، وما تدفعها إليه غريزة التقليد من التشبه بواحدة من ممثلات السينما أو بأخرى.

كانت الصبا نقيًا ظاهرا بريئا.

حتى عندما دخلت الحمام ووقفت امام مراة عارية.. لم تح شيئا من اسرار فتنها، ولم يتجه ذهنها إلى الرجل الذي ستبجح له كل هذه الاسرار، وتهب هذه الفتنة.. كل ما انتبهت إليه هو اثر الكدمات العالقة بساقها لكثرة ما سقطت من فوق دراجتها فأخذت تعالجها باظافرها وهي لا تزال هائمة في خيالها تستعرض صور زميلاتها وصديقاتها وكيف ستباهى عليهن بخطبتها.

وخرجت من الحمام لتردى ثوبها الوردى الجديد.. واهتمت اكثر من المعتاد بزينتها وتصفيف شعرها، ولم يكن اهتمامها لتبدو جميلة بل كان كل ما تحرص عليه هو ان تبدو اكبر من

سنها واکبر من صباها، وتمت لو سمحت لها امها بأن تضع بعض الطلاء على شفقتها، ثم ابتسمت وهي تمنى نفسها بكل انواع الطلاء عقب اعلان خطبتها، ثم عادت وسحبت ابتسامتها عندما امسكت في يدها بحذائها ذى الكعب القصير - أو المتوسط الطول - لتضعه في قدمها، وعبس وجهها وضمت شفقتها حتى اصبحتا كحبة الكرز الطيبة، وهمت ان تلقى بالحذاء من النافذة.. ولكنها تنهدت كأنها تستعين بالصبر على مصائب الزمن، ووضعت الحذاء في قدميها!

وسارت بجانب امها إلى الصالون الكبير لتستقبل الضيوف، وحرصت في مشيتها على ان تقلد السيدات الكبائر، حتى بدت لمن يعرفها مثيرة للضحك.

وكان الضيوف: عزيز بك وشقيقته.

رجل في الخمسين من عمره، طويل القامة عريض المنكبين، متسق تقاطيع الوجه، يكاد يكون مثلا من امثلة الشباب القوي، لولا هذه الشعيرات البيضاء التي تزحف كعاصفة من الايام فوق فؤديه، ولولا هذه التجاعيد التي تتوارى تحت عينيه وكأنها تشفق عليه من ان تقضه.

وكان حلو الشخصية، يمرح في وقار، ويتوقر في مرح، وكان حلو الحديث يستطيع ان يقنعك دون ان يكلفك مشقة المجادلة، ويستطيع ان يجذب إليه كل الأذان في كل مجال يضمه، وكان معتدًا بنفسه، معتدا بذكائه وكفائه وممارسته للحياة، حتى ليفرض شخصيته عليك متسلل بها إلى قلبك، فلا تشعر إلا وقد اتخذت منه صديقًا تعتمد عليه وتفخر بصداقته - وهو ناجح، نجح في ادارة مزارعه التي ورثها عن ابيه، ونجح

فى الحكومة حتى وصل إلى منصب وكيل وزارة، ثم نجح عقب ان استقال من الحكومة وأصبح مديرا لاحدى الشركات الكبرى.. وهو يعد قوى الخلق، لم تعرف عنه صفة لا تمتدح فيه، ولم يؤخذ عليه تبذل أو اسفاف، بل هو اقرب إلى القوم المحافظين على التقاليد وعلى سنن الآباء، ولكنه فى تحفظه لا يترنم ولا يبدو ثقيل الدم.

انه شيخ كامل، لو اردت ان تحتسب عمره بالسنين فتسميه شيخا، أو هو رجل كامل ان اكتفيت منه بمظاهر الرجولة القوية الفتية.

ولا يدرى احد مدى ما كانت عليه علاقته برب البيت قبل ان يموت، ولا مدى ما أصبحت عليه علاقته بالأم بعد ان مات عنها زوجها.. ولكن الظاهر انه كان يتردد على البيت كثيرا قبل ان يموت الزوج، واتصل ترده على البيت بعد ان مات.

وربما اشترك مع الأم فى ادارة الثروة التى تركها لها زوجها، وربما كانت هذه الثروة قد تعرضت لازمات وتشعبت فيها العقبات، فساهم بنصيب كبير أو بالنصيب كله فى تذليل هذه الازمات والعقبات.. ولكن احدا لم يعترض على ترده على البيت بعد وفاة الزوج، وهو من عرفت عنه حسن السيرة، كما ان احدا لم يعترض على الأم لاستقباله فى بيتها وهى من عرف عنها الصلابة والحزم وطجارة النفس.

ولكن للمفاجأة كانت فى ان يتقدم خاطبا الابنة، ولو انه جاء خاطبا للام لما كانت مفاجأة.

وربما كان الانسان الوحيد الذى لم يشعر بالمفاجأة ولا بسبب يدعوا لها هى عليه نفسها.. ان المفاجأة كانت بالنسبة

لها محصورة فى انها قد خطبت، اما شخص الذى جاءها خاطبا فلم يثر فيها شعور المفاجأة ولو جاءها غيره لما اختلف شعورها.

واحست عليه ببعض الارتباك وهى تستقبل الضيوف مع امها، واصطبغت وجنتهاها بلون الورد وهى تمد يدها إليهم مصافحة، فتقول لها شقيقة عزيز الاولى: «ما شاء الله.. سبحان الوهاب!» وتضمها الشقيقة الثانية إلى صدرها وتقبلها قائلة: «ربنا يمتعك بجمالك وشبابك!» ولم تجد عليه ما ترد به إلا كلمة «مرسى» ثم جلست صامته.

واخذ عزيز يتحدث، ووجدت نفسها تنساق معه فى حديثه كعادتها منذ كانت طفلة.. وشمل الحديث كل موضوع مصاييف اوروپا ومشائتيها، والاقلام السينمائية، والناس، والثياب، والذكريات، حتى موضوع الخدم.. إلا موضوعا واحدا هو: الخطبة.. وكان هذا الموضوع قد انتهى امره، وتقرر منذ امد بعيد.

وكانت الأم خلال الحديث لا تتكلم كعادتها إلا بحساب، وربما اخذت تنقل عينيتها بين ابنتها وبين عزيز، وربما فكرت طويلا فى الفارق الكبير بين صبا الخامسة عشرة وكهولة الخمسين، ولكن شيئا من تفكيرها لم يبد على وجهها، ولم يزد عليها من تعبير إلا هذه الابتسامة التى لا تبيّن عن اسنانها.

وانصرف الضيوف..

وخلت الأم بابنتها فترة تسألها:

- ما قلتش رأيك ايه؟

وقالت عليه فى سداجة كأن لم يخطر على حياتها شيء

يستحق ان يؤخذ رأيها فيه:

- فى اية؟!

- فى عزيز.. لازم اعرف راك فيه ده حيبقى جوزك، وانت لازم اللى تختاره.

- هو مش خطبني خلاص؟

- ايوه..

- وانت وافقتى..

- المهم موافقتك أنت!

والقت عليه بنفسها فوق صدر امها، وقالت فى حنان مرح:

- المهم انت يا ماما..

- دول عايزين يلبسوك الدبلة بعد ثلاثة ايام..

- ونحنمل حفلة؟!

وربتت الام على ظهر ابنتها فى عطف كبير وكأنها تشفق عليها من سذاجتها:

- الحفلة الكبيرة فى كتب الكتاب باذن الله!

- طيب.. ومش حاعمل فستان؟!

- طبعاً يا حبيبتي.. اللى انت عايزاه..

- وحالبس جزمة بتالون عالى؟!

- بس مش عالى قوى..

والقت عليه بنفسها مرة ثانية فى صدر امها، وهى تصيح مهللة:

- ربنا يخليكى لى يا ماما..

ثم ابتعدت عن امها قائلة:

- حاعمل جزمة فرنيه سودة.. اما شفت حته موديل فى مجلة «فوج» جنان!

وقامت عليه إلى غرفتها، وهى تكاد تطير من فرحتها، وخلعت ثوبها بسرعة، أو على الاصح نزعته عن جسدها نزعا، وامسكت بمجلة «فوج» والقت بنفسها فى فراشها واخذت تقلب الصفحات، ثم قلبت شفيتها امتعاضا عندما مرت بصفحات ازياء الفتيات الصغيرات، ثم توقفت عند صفحات السيدات الكبار.. ونامت وبين عينها ثوب من ثياب العرس.



وكان أول ما فعلته فى صباحها ان حادثت صديقتها ليلى بالتليفون لتروى لها ما حدث وما سيحدث وما تنوى ان تشتريه وما تنوى ان تعمله.. وكانت ليلى بدورها قد بلغت النبأ الذى تلقتة بالأمس إلى بقية الصديقات، فأخذت تروى وقعه على كل منهن.. وربما كانت ليلى قد سمعت من بعض هؤلاء الصديقات أو من امها ان «العريس راجل كبير» ولكنها لم تقل شيئا لعلية ولم يدر بينهما الحديث حول العريس بقدر ما دار حول المشتريات!

وصرخت ليلى فى التليفون كأنها تذكرت شيئا:

- عن اذنك بأه احسن ميعاد المدرسة جه!

وقالت عليه فى لهجة تحاول ان تبدو بها سيدة كبيرة:

- انت لسه بتروحي المدرسة.. فكرتيني بأيام زمان!

وكان هذا هو اليوم الأول الذى تنقطع فيه عليه عن المدرسة!

وانشغلت بعد ذلك ثلاثة ايام فى اعداد الثوب الجديد، والطواف بالحوانيت.. دائما بصحبة امها.. ووقفت فى اليوم الثالث تترين امام المرآة استعدادا لاعلان الخطبة، وقد التف حولها صديقاتها وبعض سيدات صغيرات ممن سبقنها فى الزواج ويكبرنها سنا.. والجميع يحاولن ان يساعدها فى زينتها.. وكانت سعيدة بهؤلاء الشابات اللاتي يكبرنها سنا اكثر من سعادتها بصديقاتها.. وكانت تميل اليهن.. وتحاول ان تشاركهن فى تفكيرهن وفى حديثهن، مبتعدة عن صديقاتها، ناظرة اليهن - دون تعمد - كأنهن لا زلن صغيرات لا يؤتمن على اسرار النساء واسرار زينتهن!

وخرجت إلى المدعوين، ولم يزد شئ عليها إلا هذا الطلاء الخفيف فوق شفثيها، وهذا الحذاء ذو الكعب العالى فى قدميها، وهذه التصفيفة التى جنى بها الحلاق على شعرها فافسد استرساله وبرائه.

وكان الحفل مقصورا على تناول الشاي، والمدعوين لا يتعدون افراد الاسرتين.. ووضع عزيز فى اصبعها خاتم الخطبة ووضع فوقه خاتما ذا فص كبير من الماس شع بريقه بين العيون فشبهت الصدور لروعته وسخائه.

وضغط عزيز على يدها الصغيرة فى رفق وكأنه يخشى ان يدميها بيده، ثم انحنى يلمسها بشفثيه فى قبلة عابرة حتى كأنه قبل يدها بانفاسه لا بشفثيه.

ولم تأبه عليه بيده وهى تضغط على يدها برفق، ولا شعرت به وهو ينحنى ليقبل هذه اليد، انما ظلت ترقب الخاتم الكبير متلهلة الوجه. كأنها طفلة ترقب فى دهشة لعبة جديدة اتوا لها

بها فى عيد ميلادها.

واقتربت منها أمها تحيط بها غلاتها القاتمة الحزينة، وقبلتها فى جبينها بشفتين باردتين، وكأنها استنزفت كل ما فيهما من حرارة لتحرق بها دموعا لا تريد لها ان تنهمر. وجاء شقيقها يقبلها وينظر إليها بعينين صامتتين ولا يزيد عن كلمة «مبروك».

ثم توالى المدعوون يقبلنها وكل منهن تنافس الاخرى فى اختيار كلمة تعلن بها عن فرحتها، وتخفى بها حسدها ان كانت حاسدة، أو تخفى بها شفقتها ان كانت مشفقة.

وانطلقت زغرودة واحدة يتيمة تؤذن باعلان الخطبة، فلم يكن أهل البيت ممن يؤمنون بالزغاريد أو يرحبون بها.. انما هى خادمة ارادت ان تشارك المدعوين فرحهم على طريقتها الخاصة.

وانصرف المدعوون إلى موايد الشاي، ثم انصرفوا إلى حالهم، ودعا عزيز خطيبته وامها وشقيقها إلى تناول العشاء فى فندق شبرد.

ثم...

مرت اربعة شهور كانت فترة انتقال واسعة فى حياة عليه.. لم يتغير خلالها شئ من سذاجتها، ولم تتفتح عيناها المغمضتان على جديد، ولم تتضح انوثتها ولا دب فيها احساس بهذه الانوثة.. ظلت كما هى نقية بريئة طاهرة يفضحها الصبا كلما حاولت ان تخفيه تحت كعب حدائنها العالى، أو تحت الطلاء الوردى الذى تصبغ به شفثيها.. ولكنها فى خلال هذه الشهور الاربعة كانت كمن تمثل دورا على

خشية مسرح.. دور فتاة ناضجة عرفت الدنيا وفتحت ابوابها.. دورا ليس لها، وشخصية اضخم من صباها ومن سذاجتها. أصبحت دائما مع امها تطوف بالمحال التجارية لانتقاء اثاث بيتها الجديد، وتطوف بالبيوت تبحث عن بيت للايجار، وتستقبل الخياطات وعارضى المجوهرات والمهنئات.. ثم تقضى بقية يومها تقلب فى صحف الازياء.

وكانت لا تخلو من صحبة امها، الا لتجلس مع سيدات فى عمر امها أو يزيد، فتحاول ان تقلدنه فى حديثهن، وفى حركاتهن، وفى ضحكاتهن، وفى طريقة تفكيرهن. وهى فى كل ذلك ابتعدت عن صباها الجميل.. ابتعدت عن عمرها.. لولا هذه اللقعات الصبية التى تطرا عليها بين حين وحين دون وعى منها.

لم تعد تركب الدراجات.. وظنت ان شخصيتها الجديدة تحتم عليها ان تتعالى على كل فتاة تركب دراجة، وان تنظر اليها من نافذة السيارة الكبيرة وهى بجوار امها، كما تنظر إلى طفلة ليست من عمرها وليست هى فى صباها.

ولم تعد تشاكس السفرجى والطباخ والسائق.. ولم تعد تملأ البيت ضجيجا.. انما اخذت تقلد امها فى وقارها وفى صمتها وتحاول ان تلف نفسها بهذه الغلالة الحزينة الوقورة.

ووجدت نفسها تتبعد شيئا فشيئا عن صديقاتها وزميلاتها فى المدرسة، حتى صديقتها ليلى التى كانت دائما موضع سرها البريء، أصبحت تخفى عنها اسرارها، وكانها اعتبرت اصدقاءها اصغر عمرا من ان تصون سرا، وأصبحت تعاملها بشيء من التكلف، وشيء من التعالى، وتفتعل معها نوعا من الحنان اشبه

بحنان الامهات، حتى انها ربتت على خدها يوما قائلة تحيياها: «ازيك يا حبيبتي.. وازى ماما!»

وشعرت ليلى ان صديقتها قد انتقلت إلى دنيا اخرى لا تستطيع ان تدخلها، فابتعدت بدورها عنها. وكانت عليه فرحة بتمثيل هذا الدور على مسرح عمرها، فرحة بالاندماج فى هذه الشخصية الجديدة، وكانت فرحتها الكبرى يوم وضعت على رأسها أول قبعة من قبعات السيدات، وظنت يومها انها أصبحت فعلا سيدة!

إلى ان مرت الشهور الاربعة، واكتملت بها السادسة عشرة من عمرها فاقامت حفلة كبرى احتفالاً بعيد ميلادها، واحتفالاً بكتب الكتاب، واحتفالاً بالزفاف.

ودعى مئات من الاصدقاء والصديقات. وجاء عبدالوهاب ليغنى، وتحية كاريوكا لترقص، وفرقة من العوالم لتزف العروسين.

وانهمكت عليه بكليتها فى الاستعداد لهذا اليوم الموعود، وكانت كل ما تعده اما منقولاً عن افلام السينما أو عن المجلات الاجنبية.

إلى ان ارتدت ثوب العرس، وجلست بجانب العريس فى الكوشة.. ولم تحس بالعريس، ولا التفتت إليه بقدر التفاتها إلى ثوبها، ويقدر تعدها ان تنكد فى جلستها وفى مشيتها، وفى كل حركة من حركاتها، نجمة من نجوم السينما، أو تتبع نصيحة همست بها فى اذنيها احدى صديقاتها الكبار.

واحاطت بها فرحة المدعويين وتهانيمهم، ولم تسمع شيئا من همساتهم وهم ينقلون النظر بين صباها وبين شيخوخة

العريس.

حتى عبدالوهاب همس في اذن عازف القانون: «العروثة حلوه قوى يا وله.. بث صغيرة كمان قوى.. خثارة في العجوز اللي قاعد جنبها».

وهمست تحية كاريوكا وهى تخبط على صدرها: «والنبي حرام عليهم.. دى وردة ولسه ما تفتحتش!»
ولم تفسد هذه الهمسات شيئا من بهجة الحفل، ولم توقف شيئا من اجراءات الزفاف.

إلى ان ركب العريس والعروس سيارة إلى فندق مينا هاوس ليقضيا اياما من شهر العسل.
وكان قد اعد لهما جناح.

ودخلا حجرة النوم ليلتقيا بمائدة انيقة تحمل زجاجة من الشمبانيا وكأسين.

ولم يكن عزيز يشرب الخمر أو يميل إليها، ولكنه ظن ان كأسا من الشمبانيا قد يكون لها دور كبير فى مثل هذه الليلة.
ولم تفاجأ عليه بالزجاجة والكأسين، فقد رأت مثلها وفى مثل هذه المناسبة خلال احدى الافلام السينمائية.

وكانت تعرف ما سيحدث، وان كان ما تعرفه لا يتعدى صورة مهنوزة رسمها خيالها، وبعض ما سمعته من صديقاتها الكبار.. ولكنها كانت متأكدة انه سيقبلها، وكانت قد اعدت وضعا خاصا لهذه القبلة اقتبسته من الممثلة السينمائية انجريد برجمان.

وكانا يتحدثان عما تركاه وراءهما من حوادث الحفل، بينما

عزيز يعالج زجاجة الشمبانيا حتى انطلق غطاؤها فى صوت كأنه صوت مدفع الافطار بعد صياح طويل.
وافرغ لها كأسا.

وافرغ لنفسه اخرى.

وقال وهو يرفع كأسه: «فى صحة زواجنا.. إلى الأبد!»
ونظرت إلى الكأس مبهورة، ثم اغمضت عينيها ورشفت رشفة من فوق حافظتها، ثم ابعدها لتتعلق منها «رغطة»!
وابتسم عزيز قائلا: خدى كمان شفطة!
ورشفت رشفة اخرى.
ومد عزيز يدا رقيقة حنوننا وبدأ يرفع عن رأسها «طرحة» الزفاف.

ثم مد ذراعه واحاط كتفيها وضمها إلى صدره فى رفق..
واستراحت فوق صدره..

وخيل إليه انها قد أصبحت له..

وعندما نظر إليها.. كانت قد نامت..

نامت نوما عميقا.

وابتسم عزيز ابتسامة الخبير الصبور، ثم رفعها بكلتا ذراعيه ووضعها فى الفراش كابنة عزيزة.

(٢)

وأصبحت عليه زوجة.

ولم تشعر بالتطور الكبير الذى ألم بها، انما اندمجت فى الدور الجديد الذى تمثله على مسرح عمرها اندماجا كليا، حتى كأن هذا الدور قد كتب لها، وكأنها لم تخلق إلا له.

وساعدها زوجها عزيز على هذا الاندماج، فابعد عنها في رفق ودون ان تلمح تعمده جميع صديقاتها اللاتي في مثل عمرها، واحاطها بصديقات جدد من سيدات عائلته أو من زوجات اصدقائه، وكلهن قد اجتزن مرحلة الشباب وتقدمن مترددات يطرقن ابواب الكهولة بايد لا تمتلك إلا الاستسلام.

وكان دائما معها، يصحبها إلى المجتمعات التي يسودها الوقار والالتزان، أو يصحبها إلى السينما، أو يطوفان سويا بالحوانيت لينتقى لها الثياب، ويشترى لها ادوات الزينة التي تحتاج إليها، وكان يتدخل في كل شأن من شئونها ويطبعه بذوقه الخاص، حتى المجلات والكتب التي تقرأها كان ينتقيها لها ويراعى فيها الا تشغل خيالها، أو تفتح عينيها عن دنيا لا يريد لها.. فاذا ذهب إلى عمله حرص على ان يشغل وقتها كله حتى يعود إليها.. يشغله في استقبال سيدات يخترهن لها، أو في زيارات يحددها لها، أو في اعداد وليمة، أو في كتابة اوراق.

ولم يكن في كل ذلك بيد متعمدا أو أمرا، بل لم يكن بيدو كمن يستعمل حقوقه كزوج، انما كان يستغل لباقتة وليوته ونكاه ومرحه الوقور، حتى تنقاد له وحتى يخيل إليها انها تفعل ما تريده هي لا ما يريده هو.

ويعد شهر من الزواج بدأ يصحبها إلى «العزبة».

ومنذ عام واحد كانت تذهب إلى الريف فتطلق صباها بين الحقول، وتشارك الفلاحين حياتهم، وتصحب الفتيات في موكب الغيد إلى حيث يملان جرارهن، وتعود معهن لتجلس بجانب أم السعد امام القرن الكبير تراقب اقراص العجين

وهي تدخل النار في لون الشروق وتخرج منها في لون الغروب، ثم تقفز من جانب الفرن لتمطى حمارا، ثم تقفز من فوق الحمار لتتعلق بالنورج وتدور معه فوق اعواد الذهب المحصود، وتستمتع إلى انينه وكأنه يشكو طول ما دار ليلحق بالابد، فلا الأبد انتهى ولا اعواد الذهب كف حصادها.. ثم كانت تلقى بنفسها من فوق النورج إلى اكوام «التبن» فتلهو بها، ثم تصرخ على بنات العزبة ليشاركنها لهوها، ثم تصحبهن جميعا إلى حديقة القصر الكبير لتجلسهن في شبه مدرسة وتقلد امامهن دور المعلمة أو تقوم بهن وتلعب معهن «الحجلة».

كان كل ذلك يحدث منذ عام واحد..

اما اليوم فهي تذهب إلى العزبة فتغلق وراءها هي وزوجها ابواب القصر الكبير الذي تفصله عن بيوت الفلاحين اقدنة من حدائق البرتقال والمانجو.. ولا ترى من جمال الريف إلا ارقاما يقدمها لها ناظر العزبة عن المحصولات والاسعار التي بيعت بها، ولا تجد ما تشغل به وقتها إلا ان تقيم هي وزوجها من نفسيهما محكمة تقضى في مشاكل الفلاحين وتوقع عليهم العقوبات، فتطرد هذا من بيوت العزبة، وتستولى على بهائم ذاك، وتسلم الثالث إلى المركز.. ثم لا تخرج من القصر الكبير الا في عربة «كأية» وقد جلس بجانبها زوجها، وتبعهما نفر من الخفراء والخدم يلهثون وراء العربية ويروون آثار عجلاتها بقطرات من عرق جباههم، وخلفهم ناظر العزبة على حماره وقد فتح شمسيته فوق رأسه، وامسك بيده الأخرى عصاه وكأنه حارس العبيد يخشى ان يفر واحد منهم.. ويطوف هذا الموكب

تحبط به الابهة والسطوة فى ارجاء العزبة، يرقب الظهور المكتبة فوق الارض السوداء، ويشرف على السواعد التى ترتفع كأنها تستجبر بالله، وتهوى كأنها ينست من رحمة الله.. ثم تعود مع زوجها إلى القصر الكبير وتستمتع إليه وهو يلقي بملاحظاته التى جمعها فى يومه إلى الناظر الواقف امامه يحاول ان يحنى فيرده بعض ما بقى من كبرياء، ويحاول ان ينتصب فيرده بعض ما يحتاج إليه من نفاق.

وقد اهتم عزيز بن يلتن زوجته اسرار ادارة العزبة والاشراف عليها.. فعلمها مواعيد الجنى والحصاد، وعلمها ما تحتاج إليه لزراعة القطن وزراعة القمح وزراعة البرسيم.. وعلمها كيف تعامل الفلاح وكيف تستعبده، ومتى تكرمه ومتى تذله، وكشف لها عن مواطن مكر هذا الفلاح وعن مواطن سذاجته.. واخذ يكل إليها اعمال العزبة شيئاً فشيئاً على مر الشهور حتى قامت بها كلها، فاذا بها تتقمص شخصية زوجها وتفوقه فى حزمه وفى قسوته، وفى ليونته عندما يحتاج الامر إلى ليونة، واذا بالفلاحين يحترمونها، ثم يخشونها، ثم يكرهونها.

وقد اغرمت عليه بادارة العزبة حتى أصبحت تقضى فيها معظم شهور السنة، وأصبحت - وهى فى التاسعة عشرة من عمرها - تمسك بجريدة الأهرام كل صباح فلا تبحث عن «أين تذهب هذا المساء؟» ولا عن «برنامج الأذاعة» بل كانت تبحث أول ما تبحث عن «اسعار البورصة» فاذا ما انتهت منها ودرستها نقلت عينها إلى اعمدة «الوقيات» وكأنها فى كل ذلك امرأة فى الاربعين من عمرها.

كانت تفكر كامرأة فى الاربعين.

وكانت تتكلم كامرأة فى الاربعين

وكانت تتجهم وتحد من نظرات عينها كامرأة فى الاربعين. بل أصبحت تنتقى ثيابها وتتزين بذوق امرأة فى الاربعين، وأصبحت تكثر من اقتناء المجوهرات الغالية وتكثر من التزين بها كامرأة فرغ منها الشباب ولم يعد لها ما تتعزى به الا المجوهرات!

لم يعد فيها من عمرها - عمر التاسعة عشرة - الا بشرتها النضرة وهذه الدماء الساخنة التى تطوف بوجنتها ثم تتجمع فى شفيتها، وهذا الشعر الذى ترسله احياناً فينحدر فوق كتفها كشلال من الذهب، يهدر فى همس ثم تنطلق منه شعرات فى الهواء كأنها تستغيث من الحرمان، وهذا القوام وقد نضج وشد بعضه بعضاً حتى لكأن النهدين يحاولان تقبيل العنق، ولكأن الساقين فخورتان بحملهما هذين النهدين!

ولم يعد لها من ومضات عمرها، إلا هذه اللفتات التى تنطلق من عينها احياناً كلما رأت فتى يراقص فتاة، أو كلما مرت فى شارع «البارون» بضاحية مصر الجديدة ولحت مواكب العشاق، أو كلما رأت زوجة شابة سعيدة بزوجه الشاب.. وهى لفتات لم تكن تدرى لها سبباً. لم تكن تدرى لماذا تطيل النظر اذا رأت هذا الفتى وهو يراقص هذه الفتاة، ولا لماذا تعتمد ان تطل بعينها كلما رأت شاباً يتأبط ذراع شابة فى حدائق شارع البارون ويخاطبها بشفتيه دون كلام.. لم تكن تدرى لذلك سبباً، انما كانت تنتبه إلى نفسها فتدير عينها وتعتدل فى جلستها، وتعود كما كانت وكأنها امرأة فى

الأربعين.

ولم تكن تعتقد ان هناك شيئا ينقصها وهي في حالتها هذه، كان كل ما تريده تستطيعه مادام يشتري بالمال، وكان زوجها يحترمها ويقنعها دائما انها سيده كل شيء.. ولم يكن هناك ما يضايقها إلا ساعة ان تخلو في الليل لزوجها كزوجة.

كان عزيز زوجها رقيقا مهذبا، وكان دائما يبذل جهدا كبيرا حتى لا يصل إليها الا رقيقا مهذبا.. ولكن كل هذه الرقة وكل هذا التهذيب لم يستطع ان يجعل لقبلائته طعما ولا ان يثير فيها رغبة ولا ان يجعلها تشعر بانوثتها.. فكانت تسلمه دائما شفقتين باردتين لا حياة فيهما، وتتحمله فوق صدرها وهي تحسب الثواني ليقوم عنها.. وكان كل ذلك لا يعدو في نظرها مجرد واجب من واجبات الزوجية اقتنعت نفسها به، وكان يمكن ان يكون الزواج في نظرها اروع واكمل بلا هذا الواجب!

وقد عودت نفسها على اداء هذا الواجب، أو على تحمله.. ولكنه كان يترك في نفسها اثرا عميقا قاتما، ظل يتراكم فوق صدرها حتى أصبحت كامها تعيش دائما وراء غلالة قاتمة من الصمت الحزين، وتبدو بين اهدابها دائما آثار دموع لم تنسكب، وتبدو على وجهها ملامح الجد كأنها مقدمة دائما على امر خطير أو كأنها تركت وراءها امرا خطيرا، وحتى لا يذكر احد انه رآها مرة تضحك ضحكة كبيرة طليقة، انما كانت غاية ما تستطيعه ان تتبسم ابتسامة خفيفة لا تكشف عن اسنانها.

□□□

ومرت السنون..

مرت اثنتا عشرة سنة منذ تم الزواج

وأصبحت عليه في الثامنة والعشرين من عمرها..

وأصبح زوجها في الثانية والستين من عمره!

ومرض الزوج.. اصيب بتصلب في الشرايين، ثم اصيب بذبحة صدرية لم ينج منها الا ليعيش في ظلها الاسود بقية عمره!

ومنذ احس بالمرض، واحس بقواه تتسرب منه ولا يستطيع ان يردها، انقلب انسانا آخر.. لم يعد رقيقا، ولا مهذبا، ولم تعد له هذه الشخصية الحلوة، ولا هذا الحديث المسترسل المقتنع.. أصبح ساخطا دائما، محتدا دائما، حقودا دائما، انانيا غيورا قاسيا في انانيته وغيرته.. وصب كل ذلك، صب سخطه واحتداده وحقدته وانانيته وغيرته على رأس زوجته عليه. ولم تكن عليه نفسها هي التي تثير فيه هذه الاحاسيس السوداء، بل كان شبابها ونضارتها وقوتها على الحياة.

كان هذا الشباب كل! ذلار امامه ذكره بشيخوخته القانية.

وكانت هذه النضرة كلما اطلت عليه ذكرته بذبوله.

وكانت هذه القوة كلما مدت يدا اليه ذكرته بضعفه وهزاله.

كانت هي الحياة.

وكان هو الموت.

واجتمعت الحياة والموت في بيت واحد، كل منهما يحاول ان ينتصر على الآخر، وكل منهما يحاول ان يجذب الآخر إليه..

الموت يحقد، والحياة تصفح.. الموت يقسو، والحياة ترحم!

وصمدت عليه لانانية الزوج المريض القاني، وقامت على رعايته بنفسها.. تناوله الدواء بيدها وتعد طعامه بنفسها،

وتقضى ليالى الازمات التى تنتابه جالسة على مقعد بجوار فراشه، تغفو ولا تنام.. ولكنها كانت فى رعايتها له حازمة كامرأة فى الأربعين، وكانت جادة فى حزمها.

كان اذا صرخ ساخطا حدجته بنظرة باردة اسكنته.

وكان اذا شكنا من امر لا يستحق الشكوى، تركته يشكو دون ان ترد عليه، حتى يمل الشكوى فيسكت عنها مرغما وهو يرقى ويزيد.

وكان اذا افتعل التاوه ليثير حنانها، تركته يتأوه دون ان يصل إلى حنانها.

وكان احيانا يرفض ان يتناول الدواء، لا لشيء، إلى ليثير مشكلة تثير الاهتمام به ويشأنه، فكانت تصب له الدواء، وتقريه من فمه وتنطق فى امر حازم وبصوت خافت وكأنها تأمره بعينها:

اشرب!

وينظر إلى العينين الصامتين، فينتابه احساس كأنه الخجل من نفسه، والاسف على ما بدر منه، وعلى تصرفه تصرف الاطفال.. ثم يشرب!

ثم بدأ - ولأول مرة - يحاسبها كلما غابت عنه:

كنت فين؟

وترد عليه بصرتها الخائت وكأنها دائما تتكلم بعينها..

فى المطبخ

ويرتفع صوته:

ليه؟!.. طردتى الطباخ؟!!

وترد فى برود:

لا..

ويصرخ:

امال كنت بتعملى ايه فى المطبخ.. أنا لازم اعرف كل حاجة فى البيت ده.. انا لسه ما متش، لازم تعرفى انى لسه ما متش!!

ولا ترد عليه، انما تتحنى فوق فراشه لترتب وضع الوسادة تحت رأسه ثم تصل إلى المقعد الذى تعودت ان تجلس عليه، وتفتح صحيفة تتظاهر بقراءتها وتخفى بها وجهها عنه.

ويظل يصرخ، ويردد نفس كلماته، ثم يصيح:

ردى عليه.. انت حاتجنينى.. أنا عارف انت عايزانى اموت وتخلصى منى!

وتلقى الصحيفة من امام وجهها ويرى عينها الغاضبتين الحازمتين فيسكت ويفيق لنفسه.. ثم يهمس بعد فترة:

سامحيتى يا عليه.. المريض عذره معاه.

وتبتسم هذه الابتسامة التى لا تكشف عن اسنانها، ثم تقوم إليه لتدلك يديه وجبينه بماء «الكولونيا» ثم تخاطبه وفى عينها ظل من الحنان:

ما تتعيبش نفسك يا عزيز.. الدكتور قال لازم تستريح.. وكلها يومين وتبقى بصحة وعافية.. بس ساعد رينا وساعد الدكتور وانت تخف!

فكان يهدأ، ريثما تثور فيه انانيته وحقدته مرة اخرى، فتبدأ مشاكله من جديد..

ولم تترك هذه الايام عليه دون ان تؤثر فيها.. فقد جفت حتى أصبحت كحزمة من اعواد الحطب، لا طراوة فيها ولا شيء من معاني الانوثة.. حزمة خشنة ليس فيها حب، وليس فيها مرح، وليس فيها ضعف، ولولا مظاهر الشباب التي بقيت لها لما كان فيها حياة.

ولكن هذه الحزمة الجافة من اعواد الحطب كانت تتحرك، كلما خلت عليه بنفسها في غرفتها.

وهي منذ مرض زوجها لم تعد تشاركه الفراش، وانتقلت إلى حجرة صغيرة انيقة تشرف على الحديقة خصصتها لنفسها، وكانت كلما دخلتها تذكرت امها.. انها تقيم في مثل هذه الغرفة، وتعتزل فيها الساعات، واتصلت الساعات حتى أصبحت سنوات.. ولأول مرة بدأت تقارن بين نفسها وبين امها..

انها صورة منها.. فقد تزوجت امها وهي في الخامسة عشرة رجلا في الخامسة والاربعين مات في الستين، وتركها ارملة في الثلاثين من عمرها.

وعندما وضحت لها هذه المقارنة عرفت سر الغلظة القائمة الحزينة التي كانت تحيط بامها، وعرفت سر صمتها الطويل، وعرفت سر حنانها الجاف.. ثم بدأت تخاف، ولم تكن تخاف ان يموت زوجها كما مات ابوها، وانما كانت تخاف ان يلحقها المصير الذي سبقها إليه امها.

كانت تخاف العزلة الطويلة التي تعيش فيها امها، والوحدة القاسية التي تحيط بها، وتخاف تعمد الحرص الشديد على

سيانة نفسها من كلام الناس الذي تتعرض له كل ارملة شابة. وفي خلال هذه الاحاديث الطويلة بينها وبين نفسها تجسم لها عمرها.. انها في التاسعة والعشرين!

هل هذه هي حياة امرأة في التاسعة والعشرين.. عمر الانوثة الناضجة، وعمر الحياة والحب؟

وهل كان عمرها يوما الثامنة والعشرين، أو السابعة والعشرين. وهل عاشت يوما في عمر العشرين أو التاسعة عشرة أو الثامنة عشرة؟

هل كانت يوما صبية، وهل كانت يوما شابة؟

وهل شربت من هذا الصبا، وارتوت من هذا الشباب؟

ابدا..

انها قفزت مرة واحدة من سن الخامسة عشرة إلى سن

الاربعين، وضاع ما بينهما من سنوات العمر!!

وكانت هذه الخواطر تطوف بها كالسحب لا تستطيع ان ترى ما وراءها، ولا ان ترى ما فيها، ولكن سؤال واحد الح على ذهنها كثيرا:

لماذا اختارت لها امها هذا الزوج؟.. ولماذا قبلته هي زوجها لها؟

واذا كان لها في سذاجتها يوم تزوجت عذر، فما هو عذر امها؟!

ولم تستطع ان تجد جوابا..

ورغم ذلك فهي لم تكن تكره زوجها عزيز، ولم يكن يهمها ان تحبه، فهي لم تعرف في حياتها الحب حتى تتخذ منه

فاصلا بين رجل ورجل.. انما كانت تكره ان تكون ارملة.. وهى لا تستطيع ان تمنع نفسها من التفكير فى ان زوجها سيموت قريبا، وسيتركها ارملة.

انها لا تريد له الموت.. لانها لا تريد لنفسها الترمل!

ثم كانت تبكى، حتى تضعف جفونها عن حمل دموعها فتسدل فوق عينيها وتنام نوما مضطربا قلقا تزورها خلاله احلام كأنها الاشباح.

فاذا كان الصباح بدت كما تعودت ان تبدو دائما كامرأة فى الاربعين، واخفت اضطرابها وقلقها وراء الحزمة الخشنة من اعواد الحطب.. وانشغلت فى رعاية زوجها المريض، وفى استقبال المعידين، وفى مصاحبة الاطباء، وكان بينهم دائما، «الدكتور خالد».. طبيب شاب طويل القامة متمسق تقاطيع الوجه، اسمر اللون، بين شفتيه دائما ابتسامة كبيرة مطمئنة، وفى عينيته دائما نظرة ملؤها الطيبة والحنان، ويحيط به دائما عبير هادىء يريح الاعصاب.

وكان أكثر الاطباء اهتماما بحال المريض، واصدقهم فى تشخيص المرض وفى وصف الدواء، وكان يحرص دائما بعد عيادة المريض على ان يشرح لزوجته حالته شرحا مفصلا، ويشرح لها الحالات المشابهة، ويشرح لها مفعول الادوية التى يصفها! ومركباتها وكان يقنعها بانها الطبيب الأول المعالج، فعليها ان تفهم كل ذلك حتى ينجو المريض عن يديها.

وكانت عليه ترتاح إليه، وتثق به، وكان الزائر الوحيد لهذا البيت الذى يستطيع ان يحظى منها بهذه الابتسامة الضيقة التى تكشف عن اسنانها.. ولم تكن تبتمس له وانما كانت

تبتمس لابتسامته التى لا تستطيع ان تراها إلا وتتجاوب معها. ولكن المريض كان يكرهه.

كان يكره شبابيه، وكان يكره اتساق تقاطيع وجهه، وكان يكره ابتسامته، وطيبته والعبير الذى يحيط به.. وكان كلما عاده ووقف بجانب فراشه ووقفت بجانبه زوجته اخذ ينقل النظر بينهما، ثم يدير رأسه وي زم شفتيه، ولا يبين عما فى نفسه. ثم بدأ يطالب بمنعه عن عيادته، ولكن عليه اصرت على ان يعود.

وصمم يوما على ان الدكتور خالد يخطئ فى تشخيص مرضه ويخطئ فى وصف الدواء، وبدأ يدعى سوء حالته واشتداد المرض عليه، فاستدعت عليه خمسة من مشاهير الاطباء عقدوا «كونسلتو» حول المريض، ثم اقرروا تشخيص الدكتور خالد ودواءه.

واستمر خالد فى عيادة المريض، والمريض لا يزال يبدي عدم ثقته به.. وفى آخر مرة عاده، خرج من الغرفة بعد ان اتم الكشف عليه، وخرجت وراه عليه لتتلقى تعليماته، ثم عادت إلى زوجها، فاستقبلها وفى عينيها مقدمات ثورة من ثوراته المجنونة:

كان يقولك اية؟

كان بيطمنى على صحتك

نص ساعة يطمنك فيها على صحتى، امال لو كان بيطلب

ايدك كان قعد قد اية؟!

ونظرت إليه عليه نظرتها الحازمة الصامتة..

واستمر عزيز قائلاً:

انا عايز افهم، اية سر اصرارك على الدكتور ده؟!

وقالت فى اختصار:

لانه دكتور كويس..

وصرخ وهو يكاد يهم من الفراش:

يا ستى مش عايزه.. حد شريكى.. ده صحتى انا وحياتى

انا.. مش عايز اشوفه فى البيت ده خالص.. هوه اللى

حيموتنى.. وأنا عارف عايز يموتنى ليه!

وفهمت عليه ما يرمى إليه، وعادت تنظر إليه نظرتها

الحازمة، وأضافت إليها جملة واحدة:

خالص.. مش حتشوفه!

وخرجت إلى غرفتها، وجلست وحيدة بين افكارها.. انها

المره الأولى التى يكشف فيها زوجها عن غيرته عليها، والمره

الأولى التى يغار عليها من شخص معين بالذات، وقد تكون

غيرته لمجرد اضطراب اعصابه بسبب مرضه، ولكن لماذا اختار

الدكتور خالد بالذات ولم يختر طبيباً آخر، أو احداً من

اصدقائه الذين تستقبلهم؟!

وبدأت تستعيد صورة خالد وتمعن فيها النظر.. شبابه..

وقامته.. وقوته.. وتقاطيع وجهه.. وابتسامته.. والعبير الذى

يحيط به.. ترى هل يمكن ان يكون خالد زوجها بدلاً من عزيز،

وهل يمكن ان يكون خالد من نصيب امرأة اخرى؟ ام من امثال

هؤلاء الرجال الذين لا يتزوجون؟ وليسوا من نصيب النساء؟!

وتنبهت انها - لأول مرة ايضا - تفكر فى رجل آخر.. فقد

قضت عمرها كله لا يخطر على ذهنها ولا على قلبها رجل. ولا
خطر لها ان تقارن بين زوجها وبين آخر.. كانت تعيش فى عمر
الاربعين معتقدة ان هذه هى الحياة، وكانت تعيش مع زوجها
معتقدة ان هؤلاء هم الرجال!

ولم تستطد طويلاً وراء تفكيرها فى خالد، وهزت كتفها
كانها تتعجب لحالها، وتتعجب كيف يترتب على اشارة من زوج
مريض غيور كل هذه الفكرة.

ثم عادت كما كانت!

ولم يعد الدكتور خالد يتردد على البيت أو يعود المريض،
واستبدل بطبيب آخر.

ومر أسبوع وبضعة أيام، واذا بالمريض يصاب بنوبة اغماء
فى الساعات الأولى من المساء.

واسرعت عليه إلى التليفون تستدعى الطبيب المعالج فلم
تجده فى عيادته ولا فى بيته!

وبحثت عن طبيب ثان فلم تجده ايضا.

ولم تفكر فى طبيب ثالث، انما ادارت ارقام التليفون
واتصلت بالدكتور خالد.

وجاء خالد بعد دقائق، وانحنى على المريض يعالجه حتى
افاق من اغمائه، ولم يكد يرفع عينيه وتصطدمان بوجه

الطبيب، حتى عاد واغلقهما، وهو يحرك يديه كأنه يلعنه.

وظل خالد بجانبه حتى اعتقد ان النوبة قد زائلته، ثم خرج
من الغرفة وخرجت وراءه عليه، ووقفا يتحادثان بجانب الباب

المغلق بصوت هامس. وفجأة احسا بصوت باب المريض يفتح
ويطل منه وجه عزيز.. اصفر نحيلاً كأنه وجه الموت.. واذا به

يخطو نحوهما وهو يتلمس الجدار مستندا عليه ويجر رجليه الضعيفتين وراه.. واذا فى عينيه شرر مجنون.. واذا به يلهث ويهتف من صدره صوت كصوت منفاخ ينفخ فى نار باردة. وخافت عليه، وارتسم فى عينيها الرعب، والتصقت بخالد وهى تمسك بذراعه كأنها تحتمى به. وخطا الوجه الأصفر ذو العينين المجننتين خطوات أخرى نحوهما. وشهقت عليه

وقال عزيز فى صوت محشرج خافت تقطعه الانفاس اللامئة:

بتقولوا ايه.. انا لسه ما متش.. ومش حاموت ابدأ.. حافضل قاعدلكم على طول.. وحاحركم من الميراث علشان ما يتجوزكيش.. يا.. خا.. ينة.. يا.. مجرمة.. أنا مش.. حا.. مو. وسقط على الارض.

واسرع خالد ينحنى فوقه ويتسمع دقات قلبه، وفتح حقيقته واخرج حقنة كافور حقنه بها.. وحقنه مرة ثانية.. ومرة ثالثة. ولكنه كان قد مات!



ووقفت عليه يوم تشييع الجنائز دون ان يزيد عليها شىء.. فلم تصرخ، ولم تبك ولم تتعلق بنعش زوجها وهو يخرج من الدار الى حيث لا يعود، كل ما حدث ان الغلابة القاتمة التى تحيط بها قد ازدادت قتوما، والحزن الصامت قد ازداد صمتا. والذين شهدوا امها يوم مات زوجها، تكرر امامهم نفس المشهد يوم مات زوج الابنة.. كلتاها حملت الحزن فى صدرها،

وكلتاها تاهت افكارها فيما لا يدويه احد. ودخلت عليه إلى غرفتها بعد انصراف المعزين، ولم تفكر فى الترحم على المرحوم، ولم يخطر على بالها كيف تدبر حالها بعد موته، وانما انحصر تفكيرها فى نفسها.. لقد أصبحت ارملة.. ارملة فى التاسعة والعشرين من عمرها وستبقى ما بقيت ارملة.. ارملة. وخيل اليها ان الجدران قد انطلقت منها اصابع ساخرة تشير إليها وتصيح:

ارملة.. ارملة.. ارملة.

وفتح الباب ودخلت امها صامئة متشحة بالسواد..

ونظرت إلى امها فى فزع، ورات نفسها فيها، رأت فيها مستقبلها.. مستقبل الارملة.. فابتعدت عنها إلى اخر الغرفة حتى التصقت بالجدار، وهمست فى صوت خافت:

اخرجى.. اخرجى!

ثم صرخت:

اخرجى.. اخرجى!!

ثم هجمت على امها تدفعها بيديها إلى خارج الغرفة، وهى تصرخ: اخرجى.. باقولك اخرجى من هنا!

وخرجت الأم، وصفقت عليه الباب فى قوة كأنها قتلت به شبحا مخيفا جاء يقودها إلى طريق طويل مظلم نهايته الموت.. طريق عمرها..

واسندت عليه ظهرها الى الباب وهى تلتقط انفاسها..

ونظرت امامها، فاذا بها تلتقى بالمرأة.. وترى صورتها متشحة بالسواد.. صورة من امها.

صورة الأرملة..

وصرخت عليه، ثم انكفأت فوق فراشها تبكي!

(٣)

واعتكفت عليه في غرفتها بضعة أيام، لا تريد أن ترى أحداً ولا أن يراها أحداً... اعتزلت كل الناس حتى أمها، بل أنها لم تعتزل الناس إلا لتعتزل أمها.. لا تريد أن تراها.. لا تريد أن ترى هذا الرداء الأسود، وهذا الوجه الجامد الذي تحيط به هذه الغلالة القاتمة الحزينة، وهاتين العينين الصامتتين كأنهما فوهتا قبر كساهما فنان فأبدع في اختيار الألوان ولكنه لم يستطع أن يقطر فيهما الحياة.. ولا تريد أن ترى الشفتين المزمومتين كأنهما أطبقتا إلى الأبد، ولا أن تسمع من بينهما هذه الكلمات المبتورة الجافة التي تخرج كطلقات مسدس لا ينطلق إلا ليصيب..

لقد ثارت على أمها..

هي التي زوجتها هذا الرجل، وكانت تعلم أنها ستكون أرملة وهي في التاسعة والعشرين من عمرها.

هي التي اغتصبت صباها وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وقضت على شبابها، والبستها السواد وهي بعد لم تصل إلى الثلاثين.

لماذا زوجتها؟.. ولماذا أرادت لها هذه الحياة؟

إنها لا تدري، ولم تبحث طويلاً وراء ما لا تدريه، ولكنها في ثورتها على أمها ثارت على نفسها.. ثارت على هذا الجمود الذي عاشت فيه منذ تزوجت، وثارَت على العقلية التي سيطرت

عليها.. عقلية امرأة في الأربعين من عمرها.. وثارَت على التقاليد التي حرصت عليها، وثارَت على العزبة التي اجادت ادارتها، وثارَت على مجوهراتها التي اكتنزتها، وثارَت على الأثر العريض الذي خلفه لها زوجها.

كانت تريد شيئاً غير كل هذا. شيئاً ضاع منها..

كانت تريد عمرها.. صباها، وشبابها!

ووقفت أمام المرأة. هل هذا وجه شابة في التاسعة والعشرين من عمرها؟

وحاولت أن تتبسم أمام مرآتها.. ابتسمت ابتسامة كبيرة كشفت عن أسنانها، ثم ضحكت بصوت عال، وخيل إليها أن ضحكتها جافة كهدير موقر سيارة قديمة، فضحكت مرة ثانية، وحاولت أن تضمن ضحكتها رنة أنوثة، ورنة صبا، ورنة خلاعة.. ثم مدت يديها إلى شعرها المشدود إلى الوراء في ضفيرة واحدة معقوفة خلف رأسها، وأحلتها من سجنه الطويل وتركته ينسدل حراً طليقاً فوق كتفيها، ثم سحبت خصلة منه وتركتها تنسدل فوق عينيها في إهمال مثير، ثم أخذت تنفخ في هذه الخصلة بشفتيها فتأرجح في الهواء كأنها فراشة هامت بها حتى لا تدري من أين تقبلها.. ثم أمسكت بفتحة الصدر من ثوبها وشدتها إلى كتفيها لتكشف عن مساحة أوسع من جمال صدرها.. ولأول مرة ترى أن صدرها لا يزال في عمر الصبا، لم تمتد يد إلى ثماره، ولم تنتهك يد حرمة، ولا يزال فوق عرشه العالي لم ينزل عنه ولا يحتاج إلى ما يشده إليه.. ولأول مرة ترى جمال بشرتها، وتتحسس الكنوز المخبأة تحت ثوبها، وتمر بكفيها فوق ذراعيها

فيخيل إليها ان النار تدب فيهما، وتكشف الثوب عن ساقها فيخيل إليها ان النور ينطلق منهما.

ومدت يدا مترددة إلى اصبع «الروح» واخذت تصبغ شفقتها، وخيل إليها ان وجنتيها قد طغت عليهما صفرة، فمرت عليهما بالطلاء!

ثم اخذت تروح وتغدو امام المرأة، وتحملق معجبة بهذه الصورة الجديدة المرسمة امامها.

هذا هو الصبا .. هذا هو الشباب!

الصبا والشباب للذان ضاعا منها!

وفجأة .. خيل اليها ان صورة امها قد برزت من خلف صورتها .. حزينة جادة متشحة بالسواد تحيط بها هذه الغلالة القائمة ..

وارتسم في عينيها شيء كأنه الفزع، وابتعدت عن المرأة، ثم قذفتها باصبع «الروح» الذي كان لا يزال في يدها، ثم الفت برأسها بين كفيها، تبكي!

ولم يزيها البكاء الا تصميمي ..

وكانت في تصميمها كأنها تتحدى امها .. تتحدى هذا الثوب الاسود، وهذه الغلالة القائمة.

ستتحدى .. ستسترد عمرها، ستسترد صباها، وشبابها ..

ستبدأ الحياة من جديد .. وستبداها من حيث فقدتها!

ولم يدر احد ما كان يدور بينها وبين نفسها وهي في عزلتها عن الناس داخل غرفتها، وربما خيل إلى الجميع انها صدمت بوفاة زوجها فاعتزلت تبكيه، وان الحزن قد استبد بها

حتى لم تعد تريد ان ترى من يذكرها بالحياة .. وربما خاف عليها البعض طول وحدتها فحاول ان يقم نفسه عليها، وربما سمع البعض شيئا من بكائها وشيئا من ضحكها فظن انها قد اصببت بانها عصبى، واخذ ينصح بدعوة طبيب.

وكانت الام تقيم معها في البيت طول هذه الايام، لا تحاول ان تتدخل في عزلتها، ولا تحاول ان تخفف عنها شيئا من حزنها ان كان حزنا، أو شيئا من مرضها ان كان مرضا، ولكنها كانت دائما تراها بقلبيها .. ولم يخطئ قلب الام، فقد احست ببعض ما تعانیه ابنتها، وتلمست بعض هواجسها، وربما مرت بها بعض هذه المعاناة وبعض هذه الهواجس عندما مات زوجها هي الأخرى .. ولكنها لم تستطع ابدا ان تقدر إلى اى حد يمكن ان تصل ابنتها فيما تعانیه وفيما يطوف بها من هواجس، ولو علمت فرميا قطعت عليها عزلتها، وربما مدت إليها يدا، وربما اقامت من شخصيتها سياجا تحاول ان تفرضه على ابنتها وتحميها به .. ولكنها لم تكن تعلم، فلم تفعل شيئا .. وانتظرت هذه الايام صابرة وراء غلالاتها القائمة .. مكتفية بما ينقله لها الخدم عن صحة ابنتها كلما دخلوا اليها بالطعام وخرجوا به دون ان ينقص منه الا مضغعات.

وفوجيء الجميع يوما ..

لقد خرجت عليه من غرفتها ..

ويطلق الخادم النبوي في دهشة حتى كادت عيناه تنطلق من محارها وتمتم: «بسم الله الرحمن الرحيم!» ووقفت الخادمة مذهولة وكأنها سمعت حيث كانت تقف، حتى لم تعد تستطيع ان تبلع ريقها.

ورفعت سيدتان كانتا في زيارة الأم، حاجبيهما في عجب،
وخطت احدهما على صدرها ثم مالت على الاخرى تهمس في
صوت كالفحيح، وكأنها افعى تهمس في اذن افعى..

ووقفت الأم صامدة كجذع صلب من شجرة السنديان، ولم
يطف على وجهها من دهشتها شيء، إلى ان الغلالة القاتمة قد
ازدادت قتوما، والصمت الحزين قد اشتد حزنا..

كانت عليه التي خرجت من غرفتها في هذا اليوم، غير عليه
التي مات عنها زوجها منذ بضعة ايام.

كانت قد ارسلت شعرها في ضفيرة مفردة فوق صدرها،
وتركت منه هذه الخصلة التي تتأرجح امام عينيها، وكانت قد
صبغت شفيتها ووجنتيها بالطلاء، وكانت قد شددت فتحة ثوبها
الى كتفيها حتى كشفت عن مساحة اوسع من جمال صدرها،
وكانت قد ارتدت ثوبا بسيطا واسع الاطراف كأنه ثوب فتاة في
الخامسة عشرة، وكانت تضع في قدميها حذاء بلا كعب كأنها
اخذت طالبات المدارس، وزادت على الطالبات ان ساقها لم
يكن يغطيها جورب.. ولم يكن قد بقى لها من مظاهر الحزن
على الزوج الفقيد الا لون ثوبها الاسود.

وسارت عليه إلى الباب الخارجى، لا تنظر الى احد، ولا
تلقت إلى احد، وفي عينيها تصميم اكيد وعلى وجهها عاصفة
توشك ان تهب اذا ما اقترب منها احد.

ولحقت بها امها فى البهو، وناقتها بصوت حاولت ان يكون
خافتا رقيقا:

عليه..

ولم ترد عليه، فرفعت الأم صوتها قليلا وهى تسرع الخطى

اتلحق بابتنتها:

عليه.. عليه!

ووقفت عليه وادارت لامها عينين كلهما تحد وجراة:

عابزة اية؟!

وكانت المرة الأولى التى تخاطب امها هكذا، دون ان تسبق
كلامها بلقب «حضرتك» أو تعقبه بلقب «افندم».. وحزت لهجتها
فى قلب الأم، ولكنها كتمت ما فى قلبها، وحاولت ان تحتفظ
لصوتها بهويته ووقاره:

مش نقعد نتكلم شوية يا عليه؟

مش فاضية.. انت مش شايفانى خارجة؟

بس فيه حاجات مهمة لازم نتكلم فيها!

انا زهقت خلاص من الحاجات المهمة.. من هنا ورايح
«مافيش حاجة مهمة ابدأ».

ورفعت الأم صوتها قليلا وقالت بلهجة حازمة اشبه بالقاء
الوامر:

انا لازم ارجع بيتى النهارده.. ولازم ترجعى معايا..

وطافت على شفتى عليه ابتسامة هازنة، كأنها تسخر من
امها ومن لهجة الامر التى تحدتها بها:

مين قال انى لازم ارجع معاكى.. اتفضلى انت ارجعى، وانا
حاقعد فى بيتى.. حاقعد فيه على طول!

وعادت الأم تقول وهى محتفظة بلهجتها الحازمة الأمرة:

البيت ده لازم يتقبل.. مافيش بنات يقعدوا فى بيوت
لوحدهم!

وكادت الابتسامة الساخرة تنقلب الى ضحكة فيها من السخرية اكثر مما في الابتسامة:

بنات!! انت خليتي فيه حاجة من البنات.. انا ارملة ياماما..
تسييتي قوام اتى بقيت ارملة زيك تمام.

انت لست شابة.. وكلام الناس كثير!

لا مش شابة.. لسه مابقتش شابة.. حبتدى شبابى من النهارده.. شبابى انا وماحدش شريكى فيه.. وانت اول واحدة ما اسمحشى لها تكون شريكى.. مش حاقد معاكى، ومش حاسم كلامك.. مش عايزة ابقى زيك.. عايزة اتمتع بالدنيا، واتمتع بشبابى..

وسكتت الام برهة، ثم قالت فى صوت خافت كأنها تتنهد:
اذا كنت حرمت نفسى من الدنيا فعلشانك وعلشان خاطر اخوكى.. علشان ارييكم من غير ما ادخل عليكم راجل غريب عنكم!!

ولم يلب قلب عليه وقالت وهى تكاد تكون وقحة:

انا ماليش لابنت ولا ولد.. سيبينى باه اتمتع بالدنيا، ولا عايزانى ارد لك الجميل وما اتمتعش بيها علشان خاطر ك..
كفاية اللي عملته علشانك.. كفاية اديتك عمري فحرمتيني منه..
جوزتيني وانا لسة طفلة، وشيلتيني الهم من بدرى، ورملتيني وانا لسه فى شبابى!

ورق صوت الام كأنها اشفقت عليها وقالت:

ده مش وقت الكلام ده يا عليه.. حرام عليكى المرحوم لسه ما استريحش فى تربته!

وصرخت عليه كأنها تلعن المرحوم فى قبره:

المرحوم اللي بتقولى عليه مات وهو بيلعننى.. ماكانش هاتين عليه يفوتنى لشبابى، كان عايز ياخذنى معاه فى تربته!

واحدت عليه حتى بكت وانهمرت دموعها فوق وجنتيها، وخطت امها اليها خطوة اخرى، ومدت يدها تربت على كتفها:

انت اعصابك تعبانة يا عليه لازم تستريحى.. ياللا يا حبيبتي فرج بيتى سوا، والعمر قدامك طويل.. بكره تتجوزى تانى وتخلفى، وتتمتعى بالدنيا..

وتمرتدت عليه مرة اخرى وازاحت يد امها عنها فى قسوة:

اتجوز تانى!! لا، مرسى.. لازم الاول ادور على شبابى اللي ضاع منى.. ويوم ما اتجوز انا اللي حاخاتر جوزى.. مش انت، ولا حد فى الدنيا.. انا وحدى!

واتجهت نحو الباب الكبير، ثم التفتت إلى امها قبل ان تخرج:

اذا كنت عايزة ترجعى بيتك اتفضلى.. انما انا حاقد لوحدى فى البيت ده!

وسقطت الام فوق مقعد صامته وعيناها تنظران إلى بعيد، ولا تريان شيئا.. سقط جذع السنديانة وكان السوس قد نخر ليه حتى اتى عليه، فلم يعد يستطيع ان يصمد للريح!

وخرجت عليه الى الحديقة، وتوارت خلف شجرة تجفب دموعها، ثم اخذت تسير بين شجيرات الورد وهى منكسة الرأس، كأنها لم تعد تحتمل كثرة ما يطوف بها من فكر.. ثم وجدت نفسها تنسى امها وما كان بينهما، وتعود تتذكر صباحا الذى ضاع وتصميمها على ان تسترده.. وانفجرت شفقاها عن

ابتسامه باهتة مترددة، ثم افتعلت ابتسامه كبيرة، وتعمدت ان ترفع رأسها، وان تنظر إلى الورود والزهور من حولها، واقنعت نفسها انها تتذوق جمال هذه الورود والزهور.. ثم قطعت وردة فى عمر الصبا لا تزال تطل من اكمامها على حياء، ورشقتها فى شعرها.. ثم اخذت تضرب الحصى بقدميها كما كانت تفعل وهى صبية، ثم تجرات وقفزت على قدم واحدة كأنها تلعب الحجلة. ولم تكذ تقفز حتى وجدت نفسها تتلفت كأنها تخشى ان يراها احد.

ولم تكذ تتلفت ناحية باب الطريق حتى رأت الدكتور خالد يدخل..

وحاولت ان تختبئ خلف شجيرات الورد، ولكن خالد كان قد راها ولوح لها بذراعه، ثم اخذ يتقدم إليها..

واحست بحرج كبير كأنها ضبغت تانى فعلا منكرا، ثم احست بشعور الصبا الذى بدأ يطرق قلبها يزيئها، واحست انها تعود كما كانت قبل ان يموت زوجها تتقمص شخصية امرأة فى الاربعين، وبحركة غير ارادية ازاحت ضفيرتها التى كانت تتدلى فوق صدرها الى خلف ظهرها ونزعت الوردة التى رشقتها فى شعرها منذ دقائق والقت بها على الأرض، ووضعت كفها فوق صدرها لتغطي ما كشف عنه الثوب من جماله.. ثم اذا بها تشعر بابتسامتها تتسحب من فوق شفقتها، وبوجهها يتجهم، وبهذه الغلالة القاتمة الحزينة تطوف بها لتلقها.

وحاولت ان تقاوم كل ذلك.. وتحفظ بمظهر الصبا الذى صممت عليه، ولكنها لم تستطع.. وكان خالد قد اقترب منها..

طويلا.. اسمر.. متسوق تقاطيع الوجه.. بين شفقيه ابتسامه كبيرة مطمئنة، وفى عينيه نظرة ملؤها الطيبة والحنان، ويحيط به عبير هادى، يريح الاعصاب:

بونجور يا عليه هانم..

بونجور..

انا جيت اطمئن عليكى..

مرسى..

صحتك الحمد لله كويسه..

الحمد لله

وماما ازوها؟

الحمد لله..

كانت تبتّر الكلام بقرا حتى لا تدع مجالا ليستطرد فيه، واخذ خالد ينظر حوالبه كأنه ينتظر منها ان تدعوه إلى داخل البيت أو تدعوه ليسيير معها فى الحديقة.. ولكنها لم تتكلم.. كانت تريده ان ينصرف، ان يعود من حيث اتى، فقد كان وجوده يذكرها بأيامها ويحول دون ان تستطرد فى خيالها، وفى تمثيل المسرحية الجديدة التى وضعتها لنفسها لتمثلها على مسرح عمرها.. مسرحية بطلتها فتاة صبية..

وعاد خالد يقول:

انا مبسوط اللى شفقتك خرجتى فى الجنينة..

.....

وبالناسبة دى احب اقولك... و...

وتردد خالد قليلا حتى اسكته تردده، فنظرت إليه بعينين

متسائلتين، فقال وهو لا يستطيع ان ينظر في عينيها:

كنت أحب اقول انى متأسف جدا.. ايوه.. متأسف جدا..

للكلام اللى قاله المرحوم قبل ما يموت... و...

وقاطعته عليه غاضبة:

ارجوك بلاش السيرة دى!

انا متأسف..

وقالت وهى لا تزال غاضبة:

وأنا متأسفة لانى مضطرة اسيبك دلوقت.. أنا كنت خارجة

ساعة ما جيت، اتفضل فوق.. ماما قاعدة لوجدها..

ومدت له يدا باردة.. ثم ادارت ظهرها واتجهت نحو باب

الخروج، وهى تسير فى خطى مرتبكة، كأنها لا تدرى اتسير

كامرأة فى الاربعين ام كفتاة فى الخامسة عشرة.

ووقف خالد ينظر إليها وهو فى حيرة.. وربما كان ينظر

إليها كمريض لم يكتشف مرضه ولا دواه!

xxx

ووصلت عليه فى سيرها إلى شارع «البارون».. وكانت المرة

الأولى التى تسير على قدميها فى شارع منذ ثلاثة عشر عاما،

فهى منذ تزوجت لم تخط على قدميها الا بين حجرات البيت أو

فى حديقة الدار أو فى حديقة العزبة.. واحسنت فى سيرها

كأنها سجين اطلق سراحه بعد عمر طويل فخرج يخطو إلى

الحرية وهو يهايبها، ويقدم على الدنيا مترددا بيتسم لها

ويخشاه..

وتلفتت بين جنبات شارع «البارون» فرأت طفولتها

وصباها:

هنا فى هذا الموضع من الحديقة التى تتوسط الشارع

الطويل، كانت تلهو وهى فى الخامسة من عمرها بينما «دادا

فاطمة» تنزعم حلقة «الدادات» التى كانت تنعقد كل عصر..

وهنا كانت «تنظ الحبل» وهى فى التاسعة من عمرها وتلعب

«الاستغماية» مع صديقتها.. وهنا عند هذا الرصيف بدأت

تعلم ركوب الدراجة سرا وهى تخشى ان يبلغ الخبر امها..

وهنا سقطت من فوق دراجتها واصيبت بجرح كبير فى ساقها

لا تزال آثاره عالقة بها، ولم تابه يومها بالأم الجرح بقدر ما

خشيت افتضاح امرها فى البيت والضجة التى كان يمكن ان

تحدث عندما يكتشفون انها تركب الدراجات، ولكن اهل البيت

طلفت لهفتهم على سلامة ساقها فلم يحاسبوها على شىء..

وهنا فى هذا الجزء من الطريق جرى وراءها عثمان السفرجى

ليناديها من فوق دراجتها لتذهب الى البيت فتسمع خبر

خطبتها إلى زوجها عزيز..

وتجهم وجهها بعض الشىء عندما وصلت فى ذكرياتها الى

هذا الحد..

انها تريد ان تسترد حياتها منذ هذا اليوم.. اليوم الذى

تركت فيه دراجتها لتسمع خبر خطبتها..

واحسنت برغبة جامحة فى ان تركب دراجة من جديد..

وتتمنت ان يجرى وراءها السفرجى ويناديها مرة اخرى فلا

تلبى نداءه ولا تذهب الى البيت ولا تسمع خبر خطبتها!!

وسمعت من خلفها صوت جرس دراجة يدق، وكأنه يدق فى

اذنيها.. فالتفتت إلى الوراء، وكان التفاتها اسرع مما يتوقع

راكب الدراجة فاصطدم بها صدمة شديدة، فوقعت على الأرض ووقع فوقها، ووقعت بجانبها الدراجة..

واسرع الراكب فى النهوض.. شاب فى التاسعة عشرة من عمره ينتفض الشباب من عينيه وفى عضلات صدره وذراعيه، وفى ملامح وجهه القوة السمحة، ويرتدى قميصا مخططا وسروالا رماديا.. واحد من هؤلاء الفتيان الذين يجتازون سن الغرور، وتتسلل فى دمائهم بواكير الرجولة فلا يحسون بها الا فى قوة عضلاتهم، وفى مغامرات صبيانية تتأرجح بين الطيش والتعقل، ولا يأخذون من هذه الرجولة الا مظاهرها، فيدخنون دون ان يتذوقوا للدخان طعما، ويسكرون دون ان يفهموا للكأس معنى، ويدعون الحب وهم لا يشعرون به الا بقدر ما فيه من حرمان، ولا يقبلون عليه الا بقدر ما يطفنون به ما يزيد عن طاقتهم من نار الشباب، ثم لا يحسون من لذاته الا بقدر ما يتباهون به امام الاقران!

ووقف الفتى امام عليه وهى لا تزال ملقاة على الأرض، مرتبكا متلعثما لا يدرى ايمد لها يدا ليرفعها عن الأرض، أم يعتذر لها بكلمة..

وخف عنه ارتبাকে عندما رأى عليه تبتسم له فيبتسم لها ووجهه لا يزال محتقنا ارتبাকা.. ثم اذا بها تضحك، وتغرق فى الضحك، فيضحك معها وهو لا يدرى ما الذى يضحكها ولا لماذا يضحك معها!

ونظرت عليه إلى الدراجة الملقاة بجانبها، ثم اعادت عينيها إلى الفتى، وقالت كأنها تتوسل:

اديني دورا!

ودهش الفتى وقال متلعثما:

اتفضلى يا افندم!!

وقامت عليه من على الأرض، وامسكت بالدراجة ورفعتها إليها، ثم قفزت فوقها كأنها ابنة الخامسة عشرة واعملت فيها ساقياها دون ان تأبه بأثر الكدمات والخدوش التى سببتها لها الصدمة ووقوعها على الأرض.

وغابت فى افق الشارع الطويل..

وانتظرها الفتى طويلا، وهو فى حيرة من امرها..

ثم عادت إليه تلهث فوق دراجته، وقد ارتفعت الدماء الى وجنتيها حتى اصبحتا فى لون اللهب، وتناثرت خصلات من شعرها تتأرجح امام عينيها كأنها خطرات من اوامها تشد الزمن إلى الوراء كلما جذبها الزمن إلى الامام..

ونزلت من فوق الدراجة، وقالت له وصدرها يقوم ويقعد فوق عرشه العالى ليلاحق انفاسها المتهدجة:

مرسى..

العقويا افندم..

وسكنت قليلا لتلتقط بعضا من انفاسها، ومدت يدها إلى شعرها تزيح الخصلات المتهدلة من امام عينيها، ثم قالت:

انت اسمك ايه؟

عادل..

وأنا اسمى عليه.. انت بتركب عجل كل يوم؟!

تقريبا..

طيب بكرة زى دلوقت، تعال هنا ومعك عجلة تانية..

اورقوار!!

حاضر.. اورقوار!!

وتركته وسارت متجهة إلى بيتها وعلى شفيتها ابتسامة
مرحة.. وبدا على الفتى انه خرج من حيرته إلى التفكير في
مغامرة جديدة، ثم ركب دراجته ولحق بها:

تحب اوصلك يا افندم؟!

قالها وهو فوق الدراجة.

وفكرت قليلا ثم قالت وقد اتسعت ابتسامتها:

ما عنديش مانع.. بس بلاش «يا افندم» دي انت تقوللى يا
عليه، وأنا اقولك يا عادل!

ثم قفزت فوق مقعد الدراجة الخلفى ومدت ساقها إلى
الامام بينما تعلق ببيديها فى خصره..

ولم يتكلما..

كانت سعيدة وقد خيل اليها انها بدأت عمرها من جديد..

وكان مزهوا بحمله الثمين، يكاد الزهو يخلع رأسه عن
عنقه، وتمنى لو يمر به جميع اصدقائه، ليروه فى صحبة امرأة
شابة، لا فى صحبة صببية صغيرة كاللاتى اعتادوا ان
يصاحبوهن..

وقفز بواب البيت من فوق مقعده وهو لا يكاد يصدق عينيه
عندما رأى سيده تعود فوق دراجة يقودها فتى.. وانهلته
الدهشة حتى لم يستطع ان يرفع يده بالتحية المعتادة، انما ظل
يتتبعها بعينين جاحظتين وهى تنزل من فوق الدراجة وتحبى
الفتى، ثم تقطع الحديقة فى خطوات مرحة، ثم تقفز الدرجات،

درجتين درجتين كان الصبا قد ضج فى عروقا حتى لم تعد
تتحمل ان تستقر على الأرض.

وخط البواب كفا يكف، ونظر إلى السماء كأنه يسأل الله
عن حكمته، وتمتم «لا حول ولا قوة إلا بالله»..

وبدلت عليه إلى البيت والصبا لا يزال يضح فى عروقاها،
ولحت امها جالسة فى البهو، فتوقفت واحست بصباها يهرب
منها كأنه يخشى امها أو لا يستطيع ان يواجهها حياء..
وفكرت ان تحيياها، وربما فكرت - لفرط ما كانت سعيدة - ان
تقذف بدنسها بين نراعيها كما كانت تفعل وهى صغيرة،
ولكنها عدلت عن كل ذلك، وخطت نحو غرفتها.. ولكن امها
قطعت عليها طريقها بصوتها:

عليه.. انا قايمه دلوقت مروحة بيتي؟!

وردت عليه فى صوت حاولت ان يكون رقيقا، وتعمدت ان
يكون حاسما لا يفتح بابا للمناقشة:

مع السلامة يا ماما.. اول ما توصلى اضربيلى تليفون!!

ثم دخلت حجرتها واغلقت بابها..

ووقفت امام مراتها ترى نفسها وهى فى زى الصبا، وعادت
اليها ابتسامتها الواسعة عندما رأت شعرها المهوش فوق
رأسها، وعندما رأت ساقها وذراعيها المتربة وما فيها من
كدمات وخدوش من اثر الصدمة التى اوقعتها على الأرض..
وجلست تعالج هذه الكدمات والخدوش..

وعندما جاء المساء نامت كأن لم تتم ابدا.. نامت نوما عميقا
هادئا بريئا كأنها صببية شبت فى يومها من صباها..

وخرجت في اليوم التالي لتقابل عادل، وقد احضر لها دراجة ووقف في انتظارها.

وركبا.. وطافا في شارع «البارون» والشوارع المتفرعة منه.. وضحكت كثيرا، بسبب وبلا سبب، ولم يكن عادل نفسه يدرى - في احيان كثيرة - لماذا تضحك، ثم تسابقا فوق دراجتيهما.. وحاولت ان توقعه وحاول ان يوقعها.. وتحادثا.. حدثها عن مدرسته وعن اصدقائه وعن مغامراتهم ولح لها عن مغامراته التي يزهو بها.. وحدثته، لا عن زوجها ولا عن بيتها، ولكنها كانت تروى له وقائع صباحها التي حدثت منذ ثلاثة عشر عاما على اعتبار انها وقعت لها بالأمس، وحدثته عن «ماما» كأنها صبية تخشى امها وتكرز: «دى ماما شديدة قوى»!

وتكررت بعد هذا اليوم مقابلتها مع عادل حتى اصبحت تقابله كل يوم.. اصبحت صديقتها الوحيد، وحرمت من بعده جميع الاصدقاء والصديقات الذين كانوا لها ايام زوجها.. اصبحت تنكر وجودها اذا سأل عنها احدهم في البيت، وترفض ان تستقبل من يزورها منهم أو تستقبله في برود لا يعود بعده.. حتى امها كانت تجلس إليها كلما زارتها بادية الملل والسأم حتى اضطرت ان تباعد بين كل زيارة وأخرى.

ولم تكف بهذا.. بل لمحت اعين الخدم وهي تلاحقها وتلاحق تصرفاتها، فطردتهم جميعا حتى الدواب، واستبدلتهم بغيرهم وقد خرج كل منهم وهو يترحم على ايام المرحوم.. ولم يكن كل هذا كافيا لتحطيم كل ما يذكرها بالايام التي عاشتها كامرأة في سن الاربعمين.. فتركت البيت كله، إلى شقة انيقة في احدى العمارات الجديدة فرشتها اثاثا انيقا حديثا

«سودرن» ليس فيه هذه القطع الضخمة الثمينة، وليس فيه صالون «اوبسون» ولا مائدة «روستيك» ولا شيء من طراز لويس الرابع عشر أو لويس الخامس عشر أو أى لويس.. انما انتقت جميع قطع الاثاث من الصحف الامريكية ومن افلام السينما..

ولم تعد تفكر في شيء مما عوبها زوجها الراحل ان تفكر فيه.. لم تعد تفكر في ادارة العزبة بل تركتها للناظر يسرق منها ما يشاء ما دام يعطيها ما تشاء، ولم تفكر في حصر تركة زوجها انما تركت كل شيء للمحامي، ولا تجلس إليه إلا ريثما توقع ما يطلب إليها ان توقعه من الاوراق.

ولم تعد علاقتها بعادل تقتصر على ركوب الدراجات، انما كانا يخرجان سويا في الامسيات ليأكلا «سندويتش فول» عند «منصورة» أو يتناولوا اقداح «الجيلاتي» أو يذهبا إلى سينما روكسى.. أو يخرجوا في سيارتها ليذهبا إلى احدى دور السينما في المدينة، وكان عادل يقود السيارة وهي بجانبه، وكان دائما يبدو أكثر اهتماما بالسيارة وأكثر سعادة بقيادتها، من اهتمامه بها وسعادته بقرئها..

وبدأت تدعوه إلى بيتها، وتكررت الدعوة حتى اصبحت من حقه ان يدعو نفسه، وكانا يجلسان ليلعبا الشطرنج أو الكتشيبة أو يتحادثان على انغام الراديو «البك أب»..

وكانت تحب دائما ان تستمع إلى الموسيقى الكلاسيك، وكانت تحتفظ دائما بمجموعة كاملة من مقطوعات بيتهوفن وشوبان وتشياكوفسكى وكورسا كوف، ولكن عادل قال يوما وقد ادارت احدى مقطوعات شوبان:

إيه الحاجات العجائزى دى؟

وانتفضت لسماع كلمة «عجائزى» وكأنها كلمة دخيلة على حوار المسرحية التى وضعتها لنفسها وتقوم فيها بتمثيل دور الصبية، وخرجت فى اليوم التالى واشترت مجموعة كاملة من الألبان الراقصة الحديثة وجلست تنتظر عادل..

وقال عادل وهو يستمع إلى لحن امرىكى عنيف من هذه الألبان الراقصة الحديثة:

انت ما بتعرفيش ترقصى؟

مش قوى.. ماما كانت محرجة على الرقص!

قوى اعلمك!

وبدا يعلمها رقصة «السوينج».. ووجدت نفسها تتقاذفها ذراعاه، ويدور بها فى قسوة وعنق، ويلقيها يمينا ثم يعود ويلقيها يسارا، ثم تحرك قدميها مع قدميه فى سرعة مجنونة، كأن الأشياءين كلها قد استبدت به فحاول أن يستبد بها.. ولم تستطع أن تجاربه طويلا، فنزعت نفسها منه والقت نفسها فوق الارىكة وهى تلهث متلاحقة الانفاس ويدها على قلبها.

وقالت وشفتاها تكادان تعجزان عن حمل كلماتها:

العلام مش مرة واحدة يا عادل صبرك عليه.. شويه شويه!

ووقف عادل قبالتها يضحك ملء فيه متباهيا بقوته وشبابه.

وكئنت اذا تركها عادل، جلست تقرأ فى كتب ومجلات اجنبية لم يكن زوجها يسمح لها بقراءتها.. أو تقلب فى صحف الأزياء وتقف طويلا عند أزياء الفتيات اللاتي لا يتجاوزن التاسعة عشرة.. وقد أصبحت كل ثيابها واسعة الأطراف

بسيطة فى تفصيلها مفتوحة الصدر، لتتلاءم مع دور الصبا، ولم تعد تتحلى بمجوهراتها انما تكفى بسوار رفيع من الذهب فى معصمها، أو سلسلة رفيعة تنتهى إلى حلية صغيرة مكتوب عليها «ماشاء الله» وتدليها فوق صدرها.. ثم أصبحت لا ترتدى الثياب السوداء داخل البيت، انما كانت تفضل ان ترتدى «البلوز» ومن تحته سروالا أو «شورت» وكانت تحرص على الا تجلس ابدا جلسة طبيعية معتدلة، فهى اما جالسة فوق مقعد وساقاها مطويتان تحتها، أو جالسة فوق حافة الارىكة، أو جالسة وساقاها ممدويتان فوق المائدة، أو جالسة على حافة الشرفة أو النافذة!!

ثم بدأت عندما تخرج من بيتها ترتدى ثيابا قاتمة، ليست سوداء، أو ثوبا اسود تتخلله خيوط بيضاء.. ثم لم تنقض ثمانية أشهر على وفاة زوجها حتى كانت ترتدى كل الألوان..

وهى فى كل ذلك لم تدر شيئا عن السنة الناس التى بدأت تطوف حولها، وتروى عنها وعن علاقتها بعادل قصصا يبتكرها خيال لا يرحم ولا يتقى الله..

ولم تدر ان عادل نفسه يروى عنها قصصا ظالمة يتباهى بها امام اصدقائه الفتيان كلما اجتمع بهم حول مائدة البلياردو فى مقهى «الميرا»..

ولم يكن قد حدث شيء يستحق ان تنطلق به السنة الناس أو يرضى خيالهم..

ولكن كان يجب ان يحدث شيء..

فحتى الفتيات فى عمر الصبا تحدث لهن اشياء..

(٤)

وكان يوم..

وجاء عادل إلى بيتها وقد ارتسم في عينيه معنى جديد.. وكان تبدى قضى قبل مجيئه بضع ساعات في مقهى «بالميرا».. المقهى الذى يتلقى جميع شبان ضاحية مصر الجديدة إلى ان يلفظهم رجالا.. وكان اصداؤه قد اجتمعوا حوله يتندرون كعادتهم بغلاقتهم التى تربطه بعليته، وهو بينهم يدعى الصمت كأنه يصون سرا خطيرا، فاذا ما انتهوا من تندرهم اخذ يجذب اطراف الموضوع مرة اخرى، حتى يعودوا إليه ويرضوا به غروره.

والقى عادل قده «البيرة» من بين شفطيه وقال وهو يهم بالانصراف:

اما اقوم بأه.. معياد الست جه!!

وقال احد الاصدقاء:

حلل عليك يا عم!!

ورد صديق آخر فى لهجة ساخرة

ولا حلل ولا حاجة.. اللى يدور عليه يلاقيه اكبر نتاش فى البلد.. ده بيروح عندها يسمع اسطوانات ويلاعبها البصرة!! وقهقه جميع الاصدقاء..

ونظر عادل شزرا الى صديقه كأنه يهم بأن يمسك بتلابيبه، ثم اكتفى بأن اغتصب من بين شفطيه ابتسامه، وقال كأنه يحاول ان يحمي سمعة فتاته.

حرام عليكم يا اخوانا.. ما تجبوش سيرة بنات الناس!

وسار عادل يضرب الارض بقدميه كأنه يضرب شيطانا بدأ يوسوس فى صدره، بينما كلمة «نتاش» ترن فى اذنيه، ويرتفع رنينها حتى يصبح كفرقة الصواريخ.. انه فعلا «نتاش».. انه لم يقرب عليه ولم يقبلها حتى اليوم قبله واحدة، بل لم يضغط على يدها كما تعود ان يفعل كلما التقط فى يده كف فتاة.. انما هى تشغله دائما عنها بركوب الدراجات، أو بقيادة السيارة، أو بسماع الاسطوانات، أو بالذهاب إلى السينما أو بلعب الشطرنج.. لماذا؟ لماذا لم يقبلها حتى اليوم.. ولماذا يقف عند حد تقبيلها؟ اليس رجالا.. الم تعطه كل الفرص لكل شىء؟ ماذا تقول عنه الآن؟ لا بد انها تعتبره طفلا لا يصلح الاركوب الدراجات!

ودخل عادل الى البيت وفى عينيه هذا المعنى الجديد.. وبدأ كأنه قرر امرا لا رجعة فيه.. وربما لمحت عليه هذا المعنى فى عينيه، وربما لاحظت ان هناك امرا قرره، ولكنها لم تحاول ان تفسر المعنى أو تكشف الامر، انما استقبلته مرحة ضاحكة كفتاة فى السابعة عشرة، وجرته من يده الى «الصالون» الاثيق وهى تقول كأنها تفرد:

اما قرئت حته قصة يا عادل.. جنان.. تعالى اترجمها لك كلها.

ولم يرد عادل وانقاد وراعا الى الصالون..

والتقطت عليه كتابا فرنسيا كان ملقى على الاركة، وامسكت به تقلب صفحاته وهى لا تزال واقفة قبالتها، ويدات تروى له القصة، وهى تتمايل وتحرك رأسها ويديها كأنها طالبة فى فرقة التمثيل بمدرسة الليسيه فرنسيه.

ولم يتكلم عادل.. ولم يعلق بشيء.. انما المعنى الذى فى عينيه بدأ يفسر نفسه، والامر الذى قرره بدأ يتضح.. واحتقنت الدماء فى وجهه كأنه يستجمع شجاعته، وإطال النظر إليها وهو يحس بكل عصب من اعصابه ينبض وكأنه يرتجف، بينما هى لإهمية عنه خلف الكتاب مسترسلة فى رواية القصة وفى حركاتها التمثيلية.

وفجأة.

خطا نحوها خطوة واحدة، وأزاح الكتاب من امام وجهها فى حركة خاطفة، ولفها بذراعيه، وسقط على شفقتها بشفتيه.. وكان هو نفسه قد فاض به الاندفاع والارتباك حتى سال لعابه على شفقتها قبل ان يستطيع ان يتبلعه.

وجذبت عليه نفسها من بين ذراعيه، وابتعدت عنه خطوتين وفى عينها دهشة اقرب الى الذهول، وكأنها فوجئت بفصل من فصول القصة لم تحسب حسابه، ولم تستعد له، ولم يخطر على بالها عندما قررت ان تبدأ الحياة من عمر الخامسة عشرة.

وقالت مبهورة الانفاس وهى تمسح لعابه من فوق شفقتها وجانب خدها بظهر كفها:

انت اتجننت يا عادل.. احنا مش اتفقنا نبقى اصدقاء!

واجاب عادل ووجهه لا يزال محتقنا واطرافه لا تزال ترتعش وهو لا يكاد ينظر إليها:

احنا ما اتفقناش على حاجة..

وقالت عليه فى لهجة حاسمة:

طيب تعالى نتفق من أول دلوقت..

ثم رق صوتها قليلا:

انت مش سعيد بصدقتى.. انا كمان سعيدة بصدقتك!

وقال عادل كأنه ينفجر:

انا راجل يا عليه.. والدنيا كلها عارفة انى باحبك!

وارتبكت عليه قليلا، ونظرت إليه وكأنها تنظر اليه لأول مرة

لترى فيه صورة الرجل، ثم قالت وكأنها غير مقتنعة بما تقول:

أنا كمان باحبك.. بس باحبك كصديق.. والدنيا كلها لازم

تعرف اننا بنحب بعض كأصدقاء!

ونظر عادل إليها غاضبا، وكأنه لم يعجبه ان تعرف الدنيا

ان ليس بينهما الا الصداقة، ثم ادار ظهره لها وقال وهو

ينصرف:

خلاص.. دورى لك على صديق غيرى!

ونظرت اليه حائرة وهو يبتعد عنها نحو باب الخروج، وخيل

ليها ان صباها الذى توهمته والذى عاشت فيه منذ ثمانية

شهور يفلت منها، فجرت وراءه واسمكت بذراعه، وعندما التفت

ليها قالت وكأنها تتوسل:

انت زعلت؟ طيب ماتزعلش!

وشبت على اطراف اصابع قدميها وقبلته فوق وجنته قبلة

سريعة، اقرب الى قبلة أم.

وابتسمت عينا عادل، ثم لمع فيهما شيء كأنه بريق اعلام

النصر، ثم بدأ وجهه يحتقن من جديد، وبدا كان لعابه يسيل

على شفتيه، ثم مد ذراعيه واختطفها الى صدره فى قوة

وعنف.. ومرة اخرى سقط على شفقتها بشفتيه..

واستسلمت له قليلا وانفاسها تكاد تختنق بين انفاسه، وعندما حاولت ان تباعد عنه، كان قد مد كفه وادسها في طيات شعرها ثم رفع الكف المجنونة وحاول ان يدسها بين طيات ثوبها.. ثم حركها وحاول بها ان ينزع صدرها من فوق عرشه العالي.. وشفتاه دائما ممسكتان بشفتيها وكأنهما شفتا طفل تعلقتا في اصبع من الحلوى!

وتمردت..

ودقت صدره بقبضتيها حتى استطاعت ان تنزع اصبع الحلوى من شفتيه وان تفلت من بين ذراعيه، وصاحت وانفاسها المبهورة تلتفظ كلماتها:

انت مجنون.. ايه ده.. حد يعمل كده!

وخطا عادل نحوها وذراعاها ممدودتان نحوها، وكأن شيئا لن يستطيع ان يوقفه، فصرخت فيه وهي تباعد عنه إلى آخر الغرفة:

عادل.. خليك عاقل يا عادل.. ماما زمانها جايه دلوقت!

ويبدو ان «ماما» لم يكن لها حساب كبير لدى عادل، فقد لحق بها في آخر الغرفة وامسك بكتفيها واسندها الى الجدار بقوة وكأنه سمرها فيه ثم عاد بشفتيه الى اصبع الحلوى!

وكادت عليه تجن، واخذت تضرب صدره بقبضتيها وتحاول ان تدفعه من امامها.. ولكنه كان قد اصبح كقطعة من الحجر الملتهب لا تعي وانما تنفث النار.

وعندما اعجزه ان يشل ذراعيها اللتين ترتفعان في وجهه وتدقان على صدره وتحاول بهما ان تزحبه عنها، رفع كفه بكل ما فيها من نار وشباب، وهوى بها على صدغها..

وسكنت عليه..

وكفت عن المقاومة..

وانهمرت دموعها صامئة فوق وجنتيها..

وشدتها دموعها الى الارض، فسقطت وهي تكاد لا تعي..

.....
.....
.....
.....

وحملت دموعها وقامت الى حجرتها صامئة دون ان تلتفت اليه.

والقت بنفسها على فراشها وعيناها تائهتان تريان كل شيء ولا تستطيع ان تتعرف على شيء.. وذهنها يدور ويدور دون ان يلتقط طرف الخيط الذي يقوده الى التفكير في موضوع معين او في طريق محدد.

وتبتهت قليلا عندما سمعت صوت الباب الخارجي يصفق وراء عادل.



وظلت عليه كما كانت حتى الصباح.. لا تنام ولا تفيق، ولا تستطيع ان تغمض عينيها عن شيء أو ترى بهما شيئا، ولا تستطيع ان توقف ذهنها عن الدوران أو تقوده الى التفكير في حل.

ظلت كما هي.. وشعرها مهوش فوق رأسها كأن عاصفة قد مرت به وتركته كعصف مأكول.. وثوبها ممزق من فوق جسدها

كان الزمن قد ابتلاه فبلى تحت سخط الأيام.
ظلت كما هي.. لا تستطيع ان تحرك ساقا، ولا ذراعا، ولا
اصبعاً.. وكأنها تخشى اذا تحرك منها شيء ان تلمس
مصيبتها..

ولكنها لم تستسلم طويلا لهذه الدوامة الهائلة من الخواطر
الممزقة التي تمر بها كما تمر سحب الجراد على الشجرة
الخضراء لتتركها جرداء يابسة.. وأحست بنفسها تقاوم
خواطرها كأنها تقاوم تيارا جارفا لا قبل لها به.. وانكفأت على
وجهها تضرب وسادتها بكفيها وتضرب الفراش بقدميها
وكانها تطرد من حولها فئة من الشياطين اجتمعت عليها
لنقودها الى بحر الجنون.

وانقضت واقفة، واخذت تروح وتجيء في غرفتها واقدامها
لا تكاد تستقر على الارض كأنها تخطو فوق لسع النار.. ثم
وقفت امام مرآتها.. ونظرت الى نفسها طويلا.

رأت شعرها المهوش فوق رأسها، ورات ثوبها الممزق فوق
جسدها.. ولم تحاول ان تصلح من شعرها أو تبدل ثوبها، انما
اخذت تنظر الى نفسها طويلا وكأنها تحدى هذا المخلوق
الجديد الذي يقف امامها لأول مرة:

من انت؟

انا انت!

وماذا حدث؟

لا شيء ذا بال؟

وهذا الشعر المهوش، وهذا الثوب الممزق؟

انك فاتنة!

وهذه الخواطر السوداء؟

لست في حاجة اليها.. انك تنسين انك امرأة!

انا فتاة.. انا صبية.. اكاد اكون عذراء!

انك ارملة!

وابتعدت من امام المرأة كأنها تفر من نفسها، والقت
بنفسها فوق مقعد، والقت برأسها فوق كفيها وانهمرت دموعها
من جديد.

ومن خلال الدموع اتضح لها الحقيقة التي حاولت ان
تجاهلها خلال كل هذه الشهور الطويلة.. انها ارملة وليست
عذراء.. وهي في الثلاثين من عمرها وليست في الخامسة
عشرة أو السابعة عشرة.. وحتى لورات نفسها عذراء في
السابعة عشرة، فإن الناس ومعهم عادل لا يرونها إلا ارملة في
الثلاثين!

ولاول مرة استطاعت ان تواجه حوادث ليلة الأمس..
ووجدت نفسها تقارن بين زوجها العجوز وصديقها الفتى الذي
لا يتجاوز عمره الثامنة عشرة.

لقد كان زوجها يصل إليها رقيقا مهذبا يكاد يغلبه
الضعف..

وقد وصل إليها عادل غنيا قاسيا تستبد به القوة..

ولكنها كرهت الاثنين، وتمنت لو لم يصلا إليها، وتحملت
رغم انفها وهي تكاد تضيق بهما، وتركاها جثة باردة لا ينبض
فيها شيء، ولا تحس منهما بشيء.

ولم يكن لها نذب في زوجها..

ولم يكن لها نذب في صديقها..

وهذات قليلا، ولم تحاول ان تقاوم الحقيقة المائلة امامها، وهي انها امرأة وارملة في الثلاثين، بل ربما استراحت لهذه الحقيقة ووجدت فيها بعض العزاء لضميرها الذي يولول في صدرها ويلطم الخدين حزنا على الفقيد الغالي!

وقامت متناقلة متعبة ووقفت امام مراتها مرة ثانية لتصلح من شأنها، والتقت بنفسها وهي تمشط شعرها:

كان يجب الا يحدث هذا..

ولكنه حدث!

لن يحدث ابدا مرة ثانية..

حاولي..

سأعود كما كنت!

مستحيل!!

لماذا؟

تذكرى امك!

ما شأنها؟!

هذا الحرمان الطويل، وهذا الصمت الحزين، وهذه الغلالة

القائمة، وهذه الوحدة القاسية.. لن تعودى إلى كل ذلك!

انها سعيدة..

انها بانسة..

ساكون مثلها بانسة..

شبابك.. فتنتك.. جمالك.. لماذا البؤس؟ انك مازلت في

الثلاثين!

انى حائرة..

اقبلى على الحياة..

اخاف.. لقد سقطت مرة!

لا تدعى الخوف يحرمك من شبابك.. ثقى في نفسك ولن

تسقطى مرة اخرى!

وابتعدت عن المرأة.. وضاع اليوم وهي لا تزال تائهة في افكارها تطوف بغرف البيت ولا تستقر فى واحدة منها، وهي فى كل ذلك تحاول ان تسترد ثقتها بنفسها، وتحاول ان تحدد طريقها، وقد ارتسم على جانب منه صورة من حياة امها القاتمة، وعلى الجانب الاخر صورة سقطتها مع عادل.

ثم ضاقت من طول التفكير، وبدأت اعصابها تتوتر حتى خيل اليها انها تريد ان تحطم كل ما حولها، بل ان قدمها اصطدمت بالمائدة الصغيرة التي تحمل اناء الورد فرفعت الائناء وحطمته على الارض.. ثم اسرعت الى غرفتها وفتحت دولااب ملابسها.. يجب ان تخرج من هذا البيت.. انها تريد ان ترقص.. تريد شيئا يلهيها عن افكارها، وعن ضميرها وعن نفسها..

وتوقفت قليلا قبل ان تمد يدها إلى الثوب..

ابن تذهب..

واستعرضت فى مخيلتها دنياها كلها.. وفكرت فى كل شىء الا ان تبقى فى هذا البيت، ومر بخاطرها كل من تعرفهم الا عادل.. ثم رفعت حاجبيها كأنها وجدت ضالتها عندما تذكرت «حورية هانم».. سيدة ثرية فى الخامسة والاربعين

تعرفها ضاحية مصر الجديدة كلها، وتعرف الكثير عن حفلاتها الصاخبة، وتجمع حولها فريقا من هذا النوع من النساء، وفريقا من هذا النوع من الرجال، وقد قررت ان تستعيز عن الآخرة بالدنيا فجمعت في بيتها الحور والولدان، واستعاضت عن الشراب الطهور بالموسكى!

ولم تكن حورية هانم تجرؤ على مصادقة والدة عليه أو على دعوتها إلى منزلها، ولم تكن أيضا تجرؤ على مصادقة عليه في حياة زوجها، ولكن بعد ان مات عنها زوجها، بدأت تحييها كلما التقت بها، ثم بدأت تحدثها حديثا عابرا، ثم دعته مرة ومرتين واعتذرت عليه عن تلبية الدعوة.

وربما اعتقدت عليه ان حورية تستطيع ان تنسيها خاطرها أو ربما اعتقدت انها ستجد لديها كثيرا من الضحك وكثيرا من اللهو مما يلهيها عن أعصابها المتوترة وابتسمت عليه كأن فكرة «حورية هانم» أكتشاف كبير وابتسمت مرة ثانية ابتسامه لها معنى آخر، كأنها واثقة من نفسها إلى حد ان حورية لن تستطيع ان تفسد من حياتها شيئا.

وأتصلت بها بالتليفون:

انا عليه.. ازيك يا حورية هانم؟

وبدا كأن حورية فوجئت بهذه المكالمة التليفونية ودهشت لها، فقد ارتبك صوتها قليلا:

اهلا وسهلا.. دى فرصة سعيدة قوى.. ازيك يا حبيبتى.

الله انا بقالى زمان ما بشوفكيش.. قلت لما اطمئن عليكى..

انت اللى لا بتسالى ولا حد ببشوفك ولا راضية تزورينا..

بس كنت مشغولة..

طيب ماتيجى تسهرى عندى الليلة.. مايفش حد..

كلهم تعرفيهم!

بأذن الله..

صحيح جايه؟!

جايه.. اورفوار..

وقبل ان تلقى بالسماعة سمعت صوت حورية يقول لها فى لهجة طبيعية كأنها لا تقول شيئا مستغربا:

واذا حبيبتى تيجيبى عادل بيه معاكى اهلا وسهلا!

وتلجت كف عليه فوق السماعة، ولم تدر ماذا تقول، وخيل إليها انها يجب ان تلعن هذه المرأة وتلقى بسماعة التليفون فى وجهها، ولكنها لم تلعنها ولم تلق بالسماعة فى وجهها، فلم يكن فى لهجة حورية هانم ما يثيرها أو ما يجعلها تعتقد انها تعتمد اهانتها.

واجابت فى صوت بارد:

اما اشوف!

ووضعت السماعة..

ووقفت كأنها اكتشفت شيئا جديدا فى حياتها.. ان حورية تعرف علاقتها بعادل، اذن فالدنيا كلها تعرف، وقد اعترف لها عادل بذلك ليلة أمس عندما قال لها: «الدنيا كلها عارفة انى باحبك.. وربما قدر لها الناس السقوط قبل ان تسقط، وربما رووا عنها قصصا كالتى تسمعها عن بعض النساء..

ماذا بقى لها؟!

واحست كأنها تستخف بكل هذا، وعاورها شعور التحدى..

تحدى الناس كلهم والدنيا كلها وكل ما تستطيع الألسنة ان تروى عنها وعن سقوطها.

وبدأت تستعد للذهاب إلى حورية هامم..

● ولم تختر في هذه المرة ثوبا واسع الذيل كثياب الفتيات..
انما اختارت ثوبا اسود ضيقا يضغط على كل قطعة من جسدها كأنه يخشى عليها من ان تتساقط عنها.. ولم تعقص شعرها في ضفيرة واحدة تليها فوق صدرها، بل لفت الضفيرة في سبيكة علقها في مؤخرة رأسها، ولم تضع هذا الطلاء الخفيف الباهت الذي كانت تبدو به كفتاة في السابعة عشرة، بل انقلت من الطلاء فوق شفيتها ووجنتيها، ووضعت «الريميل» فوق رموش عينيها، والقت ظللا بالقلم الأسود فوق حاجبيها وجفنيها.. ثم اخرجت صندوق حليها، ووضعت في معصمها سوارا عريضا من الماس، وشبكت في صدرها ديبوسا رائعا تنوسطه حبة كبيرة من الزمرد، وتركت عنقها خاليا تستعيز بنوره عن كل حليه..

ويدت امرأة فاتنة..

امراة في مثل عمرها.. في الثلاثين!

ونظرت باعجاب إلى صورتها الجديدة المرتسمة امامها في المرآة.. صورة امرأة تحدى، وقد فاضت بها الثقة في نفسها حتى لم تعد تخشى التحدى.

والتقطت حقيبتها الصغيرة، ثم عادت ولقت نظرة اخيرة على مراتها وخرجت من غرفتها.

وعندما وصلت إلى البهو، جفلت قليلا قبل ان تخطو إليه..

كان عادل هناك.. وكان السفرجى قد فتح له الباب، ولم

ينبئها بحضوره ثقة منه انها تعرف انه قد حضر، مادام يحضر كل مساء..

وكان عادل مديرا ظهره لها منشغلا في تقليب بعض الاسطوانات.. فلم يلحظ جفلتها عندما رآته.. وتمالكت هي نفسها ثم تقدمت بخطوات ثابتة وقالت في صوت لا تبدو فيه رجفة، ولا يبدو فيه شيء مما حدث ليلة أمس:

بونسواري عادل..

والتفت عادل إليها، وعندما رآها في زينتها الجديدة اخرج من فمه صفيرا طويلا، وقال وعلى شفتيه ابتسامة تحمل كل ما في شبابه من غرور:

ايه ده كله!

ونظرت إليه في عينيها نظرة باردة جامدة لا تهتز، واطالت إليه النظر حتى اضطر ان يرخي جفونه فوق عينيها وان يبتلع بعض غروره وقال في صوت ضعيف وكأنه يشعر ان هناك شيئا قد حدث وان من واجبه ان ينسى الليلة ما حدث ليلة أمس:

الفيستان ده شيك قوى.. انا متهيأ لى انى باشوفك لأول

مرة!!

ولم ترد عليه، انما فتحت حقيبتها واخرجت منها مفتاحا ناولته له:

خد.. طلع العربية من الجاراج وانا حاصلك حالا..

ويدت على عادل بعض الدهشة عندما سمع اللهجة التي تحدثه بها، وقال مرتبكا وقد بدأ يشعر كأنه امام امرأة كبيرة.. اكبر منه سنا:

حانروح فين.. ده انا لازم ارجع اذاكر!

وقالت وهى لا تزال تأمر:

بلاش مذاكرة النهارده.. ابقى ذاكر بكره.. واعمل معروف
ما تفكرنيش تانى انك لسه تلميذا!

وابتسمت له ابتسامه ضيقة لم تكشف عن اسنانها.. وقال
عادل كأنه يعاتبها:

ما احنا كنا بنذاكر سوى لغاية امبارح!

وقالت وهى لا تزال محتفظة بابتسامتها الضيقة للتحدي:

انا خلاص بطلت مذاكرة.. من هنا ورايح تبقى تذاكر
لوحدا!

وقال عادل وهى يحاول ان يضحك:

كلها كام شهر وبقى فى الجامعة.. ولا اذاكرش!

وخطا نحو الباب يريد الخروج، ثم وقف والتفت إليها:

انت زعلانة منى يا عليه؟!

وقاطعته فى حسم:

لا.. مش زعلانة.. روح طلع العربية قوام.. حاخذك

افسحك.. افسحك ازاي اذا كنت زعلانة منك!

وخرج عادل..

وظافت بالغرفة تطفىء الانوار.. ثم بق جرس التليفون،

وسمعت السفرجى يرد، ثم جاءها يقول:

الدكتور خالد يا افندم!

وانتبهت بغتة، واحست كأن يدا تحاول ان تقبض عليها

لتخرجها من حياتها، ثم استندت بيدها على حافة مقعد قريب،

وبدا كأنها تفكر وسط ضباب كثيف، ثم قالت بعد قليل فى

صوت خافت ضعيف:

قول له الست خرجت!

واطفات النور..

(٥)

ودخلت «عليه» الى بيت حورية هانم واستقبلها المجتمعون
هناك بأعين دهشة، بعضها يفيض بالاعجاب، وبعضها يرتسم
فيها الحسد او السخرية.

ووقفت تدير بينهم عينيها فى نظرات ثابتة كأنها تتفرج على
مجموعة غريبة من المخلوقات اطمانت اليها بعد ان وضعت
بينها وبينهم قضباناً من حديد.. قضباناً صبتها من شعورها
الجديد بالثقة فى نفسها..

وبدأت تتعرف على السيدات.. ان بعضهن كن من صديقات
الطفولة أو من زميلاتها فى المدرسة.. بعضهن يكبرنها سناً
وبعضهن يصغرنها، وقد جاء معظمهن بصحبة ازواجهن، وأن
كانت كل منهن قد التقت إلى زوج اخرى، والتقت كل زوج الى
زوجة اخر.

وجلست بين كلمات الترحيب والاعجاب، وبدأ الرجال
يتسللون اليها ويحوطنونها باهتمامهم، بينما حاولت السيدات
ان يغتصبن من شفاههن ابتسامات يقذفن بها إليها وهن
يذكرنها بأيام الصبا..

وجلس عادل بعيدا عنها مرتبكا مرتجفا لا يستطيع ان يالف حوله أو يندمج فيه، يحاول ان يبدو رجلا فيكثر من التدخين ويدعى الوقار، ثم يخونه صباح فيحترق وجهه وتتلعج يدها ويتلعثم لسانه، بينما نظرات النساء تحيط به وكأنهن يبحثن فيه غمبا دعا «عليه» إلى اختياره صديقا لها، والرجال يختلسون إليه النظر متحسرين، ويهمس احدهم في اذن الآخر: «أمال يا عم.. يستاهل.. صحة وشباب.. مش زينا يالله حسن الختام!»

وتقدمت حورية وفي يدها كأس:

ويسكى يا عليه هانم!

ولم ترفض عليه الكأس، انما تناولتها ووضعتها بجانبها وربما مر الليل كله دون ان تتذوق منها الا رشفة أو رشفتين. وعندما طاف الكأس بعادل تناوله في لهفة، وابتلع معظمه في رشفة واحدة، وكأنه يستغيث به ليساعده على ارتبائه..

وضحكت عليه كثيرا وحورية تروى لها نوادر الناس، وترسم بلسانها صوراً هزلية لنساء ورجال، وضحكت وهي تستمع لمحاولات الرجال التقرب إليها، وضحكت وكل من النساء تصف زوجها وما بينها وبينه من مشاكل عاطفية.. ولكنها لم تضحك عندما سمعت معنى خارجا في حديث احدهم، انما علا وجهها شيء من الجد والصرامة، وتوارى الحبور من عينيها وانطلقت شفتاها، حتى شعر الرجل صاحب الحديث بالخجل من نفسه وكاد يعنذر، وحتى عرف كل الحاضرين ان عليه رغم كل ما يتخيلونه عنها تفرض الاحتشام في الحديث على كل من يتحدث في حضرتها.

وكاد الليل يطول بعليه وهي في ضيافة حورية هانم، لولا

انها لمحت عادل وقد بدأ يترنح في وقفته بعد ان افترط في الشراب، وبدأ يقهقه بصوت عال، ويتكلم كلاما مبعثرا.. ثم اتجه إليها وخطواته لا تكاد تحمله، وفي عينيها نظرات جريئة وقد التوت شفتاه فوق ابتسامة عريضة.. وقيل ان يصل إليها كانت قد وقفت مستأنزة في الانصراف مادة يدها لتودع حورية هانم.

والتفت عادل إليها دهشا وترنحت الكلمات بين شفثيه قائلاً:

ما ادى احنا قاعدين!

ولم ترد عليه.. وخرجت..

وهز عادل كتفيه وخرج وراءها دون ان يصافح احدا..

وجلست في مقعد القيادة واحتج عادل:

انتى فاكرانى سكران؟! ابدأ والله!

وقالت في صوت أمر:

لغف.. وادخل من الباب الثاني..

وجلس عادل بجانبها، وقادت السيارة، لا تتحدث ولا تلتفت إليه.. ومال عليها يحاول ان يقبلها، فازاحته عنها في قوة:

اقعد كويس خلينى اسوق!

انت بتكلمينى كده ليه.. لازم زعلانه منى!

وقلتك مش زعلانه.. بس انت اللى ساعات بتحب تزودها قوى..

وقال وهو يضحك ضحكة مخمورة:

وانت ساعات بتنقصيها قوى!

بايخة!

الأبوخ منها انى اقعد جنبك كده من غير حاجة.. انتى فاكراى ايه؟ عيئل ما اعرفش الا ركوب البسكلتات ولعب الشطرنج؟!

لو كنت راجل ما كنتش تتكلم الكلام ده..

لا يا شيخه.. ما عرفتيش لسه اذا كنت راجل ولا لا..

تحبى اثبت لك تانى انى راجل!

والتقت إليها وعيناه تحاولان ان تزيحا جفنيه الثقيلين بالخمير، وقرب وجهه إلى وجهها ورأسه المترنح يكاد يسقط فوق كتفيها، ومد ذراعه والقاه فوق مسند السيارة وراء رأسها، وملات انفها رائحة الويسكى المنبعثة من فيه..

وثارت الدماء فى عروقها وتجمعت ثورتها فى رأسها حتى خيل إليها انها لم تعد ترى الطريق امامها، وتقلصت اصابعها فوق عجلة القيادة كأنها تحاول ان تنتزعها من مكانها وتحطمها فوق رأسه، ثم ضغطت بقدمها على ضاغط البنزين فانطلقت السيارة كأنها هى الأخرى ثارت مع صاحبيتها وتحاول ان تفر بها أو تفر منها..

وقالت من بين اسنانها:

ابعد عنى احسن ورحمة بابا اخش فى شجرة ولا فى فانوس!

وابتعد عنها فى حركة تلقائية، ثم قال كأنه يتحداها أو كأنه يحاول ان يخفف من الخوف الذى يشعر به:

بس وحياتك اختارى شجرة كويسة ولا فانوس عليه القيمة،

علشان ما نموتش فطيس!

وكانت قد وصلت إلى بيته فضغلت على الفرامل ضغطة قوية، فوقفت السيارة وهى تزحف فوق عجلاتها وتصرخ صراخا كأنه العويل، وقالت فى حزم:

اتفضل!!

ونظر إليها عادل مترددا وقال:

مش اوصلك انت الأول علشان ادخل العربية فى الجراج؟!

لا مرسى..

وفتح الباب ونزل وهو لا يزال يترنح:

طيب بونسوار.. بكره نبقى نتكلم..

ان شاء الله..

انت لسه ز...

وقبل ان يتم كلامه كانت قد اطلقت للسيارة العنان..

ولم تتم ليلتها.. ويات تبحت تحت وسادتها وبين طيات فراشها وتحت ثيابها عن كرامتها التى خيل إليها انها ضاعت. وعندما حادثها فى التليفون فى صباح اليوم التالى، القت بالسماعة فى وجهه.

وعندما دق جرس الباب بعد قليل، وجدته امامها..

وصرخت فيه كأنها تطرده من بيتها:

انت جاي تعمل أيه هنا!

وقال فى ضعف ورأسه منكس إلى الارض لا يستطيع ان

يرفعه إليها:

جاي اعتذر.. أنا أسف يا عليه.. اعذرني أنا كنت سكران،

والذنب مش ذنبى انت اللي خدتينى عند الجماعة دول، وهم اللي سكرونى.

علشان تعرف انك لسه ما بقتش راجل..

• ورفع إليها عينيه، وعندما رأى نظرتها الغاضبة عاد ونكس رأسه:

الرجالة ساعات بيسكروا.. وأنا أسف..

مش مهم انك تأسف، المهم انك ما تجيش هنا تانى!

وفى هذه المرة رفع رأسه ولم يخفضها:

بتطربىنى من بيتك يا عليه؟!

ايوه..

ده مش من حقك!!

بتقول ايه!! ده بيتى وأنا حرة فيه..

انما مش حرة فيه انا..

تصنك ايه..

قصدى انك انت اللي دخلتيني بيتك، وانت اللي خلتيني

احبك.. وأنا مش خدامك علشان تدخليني وقت ما تحبى

وتخرجيني وقت ما تحبى.

انا دخلتك كصديق.. وانت اللي ما احترمتش الصداقة.

ونظر إليها طويلا، وبدا كأنه يفكر أو يبحث عن نتيجة

سريعة يصل إليها، ثم ارخى عينيه وقال:

انا مستعد من هنا ورايح ابقى صديق!

وطافت عليه بعينيهما فوق وجهه كأنها لا تصدق ما تسمعه،

ثم قالت وقد خفت حدة صوتها:

وازاي اتأكد انك حبتقى صحيح صديق عاقل وطيب؟

جربيني!

وربما لم تجد عليه مفرا من هذه التجربة، وربما خافت لو اصرت على طرده ان يرتكب حماقة تزيد من شقاؤها، فقبلتها مضطرة.. وجلسا يحاولان ان يصلا الحديث بينهما فينقطع، ويحاولان ان يسكتا فيخافا ان يثور بينهما الجدل مرة اخرى.. وعندما انصرف عادل لم تسترح، ولم تهدأ، انما احسنت بافكارها السود تعاودها مرة اخرى، واحسنت بنفسها حائرة وسط فراغ كبير يحيط بها. فأمسكت بسماعة التليفون واتصلت بحورية هانم تدعوها إليها..

وقبلت حورية هانم الدعوة مرحبة..

□□□

وسارت الأيام..

وأصبحت عليه الصديقة الحميمة لحورية، وواحدة من السيدات اللاتي يجتمعن دائما في بيتها، ويشتركن في الحفلات التي تقيمها.. ولكنها كانت تختلف عنهن جميعا في انها كانت تفرض احترامها على الجميع، فلم تكن تتبذل ولم تكن تسمح لأحد ان يتبذل معها، ولم تكن تلقى بنفسها فى كؤوس الويسكى انما كانت تكفى برشفة أو رشفتين ثم تترك الكأس امامها حتى يبأس من اغرائها.

وأصبحت ترتاد مع هذه الجماعة الاماكن العامة، والحفلات الخيرية، وترقص احيانا، ولكنها لا ترقص كثيرا ولا تسمح لأحد عندما يراقصها ان يضع خده على خدها أو يضغطها

بذراعه إلى صدره.

وكثر حولها كلام الناس، واحتراروا في أمرها.. حتى هؤلاء الذين كانت تصحبهم كانوا في حيرة منها، وحتى حورية التي أصبحت صديققتها الحميمة لم تكن تعرف عنها أكثر مما يعرفه الناس، فهي لم تكن تتكلم أبدا عن نفسها، ولم تستشر أحدا في مشاكلها، ولم تطلع إنسانا على عواطفها.

وربما اعتقد البعض أن هذا التحفظ الذي تبدو به يرجع إلى تعلقها بعادل واكتفائها به وحرصها على مراعاة شعوره، وقد كان عادل يصحبها إلى معظم الليالي، ولكنها لم تبتدأ أبدا مهتمة به ولا حريصة عليه، وهو لم يكن يبدو أبدا كأنه صاحب كلمة عليها أو أن له شأنًا في حياتها، إنما كان يبدو كأنه مجرد مرافق لها..

ثم بدأ عادل يرتاد هذه الليالي وحده عندما تتخلف عنها عليه، بعد أن أصبح عضوا معترفا به في «شلة» حورية هانم، وبدأ بعض سيدات الشلة يسعين إليه، وقد اعتقدن أنهن بذلك يكنن لعليه، أو ربما كان سعيهن وراءه مجرد التمتع بحرارة شبابه.. وقرح عادل بهذا الاقتبال عليه، وبدأ يرضى به غروره ويعوض به ما تصده عنه عليه.. ولكنه ظل دائما مدعيا تعلق عليه به محاولا أن يقنع الجميع بانها لا تزال له ولا يزال لها، فكان يهمس في أذن صاحبة جديدة:

حاسبى احسن عليه تشوقنا..

أو يقول لآخرى:

ويعدين.. أنا خايف عليه تعرف تسود عيشتنا احنا الجوزا
وأصبح عادل يستغل اسم عليه ليلتقط به النساء، وأصبحت

النساء تلتف حوله معتقدات انهن ينافسن فيه عليه، وانهن يستلطن به أن يحطنن كبريائها وتعاليها عليهن والاحترام الذي تفرضه على الجميع.

ولكن عليه لم تكن تآبه بهن أو به..

ومع مرور الأيام لاحظوا انها فعلا لا تآبه به ولا تغار ولا تلتقى بالا، فزادوا حيرة من امرها..

وهي نفسها كانت في حيرة من نفسها..

انها تعلم انها لا تستطيع ان تندمج في هذا المجتمع الذي اقتصت نفسها فيه، وتعلم انها لا تستطيع ان تتبذل كما تتبذل نساؤه أو تعبت كما يعبت رجاله.. انها لا تستطيع ان ترقص كما يرقصون، أو تعيش بين الكؤوس كما يعيشون، أو تضحك وتتحدث كما يضحكون ويتحدثون.. إنما هي أيضا لا تستطيع ان تستقر في بيتها ولا ان تخلو إلى نفسها..
انها تفر من شيء..

تفر من عمرها الذي قضته مع زوجها، وتفر من عمرها الذي توهمته وحاولت ان تشرك فيه عادل..

وهي في فراها ترفض كل يد تمتد إليها لانقاذها.. ترفض نصائح امها التي تتردد عليها والدموع في عينيها تتوسل إليها ان تعود وتعيش في رعايتها.. وترفض نصائح اخيها الذي ينس منها حتى كاد ينكرها.. وترفض الرجال الذين بدأوا يتقدمون إليها خاطبين، بعضهم جاء من بعيد دون ان يسمع عن سيرتها شيئا، وبعضهم سمع وأغلق أذنيه عما سمع طامعا في جمالها ومالها واصلها الطيب، وبعضهم انصفها من السنة الناس ورأى منها ما استعان به على ان يرسم لها صورة

طاهرة لزوجة صالحة..

رفضتهم جميعا دون ان تبدي سببا ودون ان تسأل نفسها عن سبب.. وعاشت في فرارها من نفسها.. النفس التي تحطمت عندما اكتشفت ان عمرها قد اغتصب منها يوم زواجها وهي في الخامسة عشرة رجلا في الخمسين وعاشت معه محرومة من صباها وشبابها كأنها امرأة في الأربعين.. ويوم اكتشفت انها أصبحت امرأة وقضى عليها ان تعيش كأنها حزينة، وحيدة.. جافة..

وتعبت من طول الفرار..

أصبحت لا تنام.. وانهكها طول السهر وطول القلق وطول تفكيرها في حيرتها..

وادمعت التدخين حتى لم تعد السيارة تفارق شفيتها الا ريثما تعود إليها.. ونبل لون بشرتها الابيض المشرب بالحمرة، حتى اصبح اقرب إلى الصفرة كأن دماءها قد اختنقت في عروقها وسط بخان سجاثرها..

وعشقها الليل حتى ترك سواده حول عينها فاضطرت ان تكثر من الطلاء فوق وجهها حتى تخفي آثار هذا العشق الظالم الذي لا حيلة لها فيه.

ويدت اكبر من سنها.. بدت منهكة متعبة عصبية المزاج، في عينها نظرة لا تهدأ الا للغضب، وبين شفيتها ابتسامة لا تستقر، تكاد تعجز عن حملها فتفتخ فيها بضحكة عالية.

ورغم ذلك ظلت في هذا الجو الذي تعيش فيه محتفظة باحترامها لا تتبدل ولا تعبت..

وخيل إليها انها مريضة..

وبدأت تبحث عن طبيب، ففكرت في الدكتور خالد..

او انها فكرت في الدكتور خالد، فبدات تبحث عن طبيب! وكان اسم خالد يتردد امامها كثيرا على شفاه بعض السيدات كأنه امل كبير تتمناه كل منهن وتعجز عن الوصول إليه، وكانت كلما سمعت اسمه التقت باهتمام دون ان تدري لاهتمامها سببا، وكانت احيانا تحس انها غضبت وانها تكتم غضبها في طيات اعصابها للاسلوب الذي تتحدث به النساء عنه، فلم يكن حديثهن عنه كطبيب ولا عن علمه ومهارته، انما كن يتحدثن عنه كرجل، وكانت احداهن تصيح:

يا ختي عليه!

والثانية همس:

حقه لو كان جوزي.. ما كنتش الدنيا ساعتني!

والثالثة تقول:

الصنف ده يفضل يتأنزح كده لغاية ما يقع على دماغه..

وتوقعه واحدة ما تساويش بصلة!

وكانت تسمع كل هذا ثم تعلق بهوده:

خالد دكتور كويس.. شاطر قوي!

وقد خطر لها خالد في ليلها الطويل مرات.. وفكرت أكثر من مرة ان تذهب إليه، فكان يشدها عنه دائما شعور لا تدريه، ربما شعور كأنها تتحداه وتحدي ظنون زوجها عندما اتهمها قبل ان يموت بان بينها وبينه علاقة تثير الشك، وربما شعور كأنها تخجل من نفسها بعد ما طرأ على حياتها، وبعد ان ألت عن عمرها ثوب الوقار والحشمة الذي كانت ترتديه..

وقد التقت به مرات في حفلات وفي محال عامة.. فكان يحنى لها رأسه من بعيد وعلى فمه ابتسامة طيبة وفي عينيه نظرة ثابتة كأنه يبحث في وجهها عن شيء.. وقد تصافحا عدة مرات، فكان يسألها:

ازيك يا عليّه هانم؟

ثم يسكت ويطل النظر إليها بهذه النظرة الثابتة التي تبحث في وجهها عن شيء.. ثم لا يجد شيئاً يقوله، ولا تجد شيئاً تقوله، فيفترقان إلى أن تجمعهما صدفة أخرى..

وظل هذا هو كل نصيب خالد من حياتها، إلى أن توهمت أنها مريضة، وتمسكت بهذا الوهم واستندت عليه، لتذهب إليه في عيادته..

وربما فكرت أن تدعوه إليها في بيتها بدل أن تذهب إليه، ولكنها أحسست كأن ليس من حقها أن تدعو خالد إلى بيتها، وليس من حق خالد أن يدخل بيتاً تقيم فيه وحدها! وذهبت إليه في عيادته بميدان الأزهار..

ولم تخبر التمرجي باسمها ليبلغه إليه إنما انتظرت في غرفة الانتظار كأى مريضة عادية تنتظر دورها..

وكانت الغرفة مزجمة بالسيدات، وخيل إليها أن كلهن لسن مريضات وليس فيهن من تشكو شيئاً، وأحسست أنها تكرههن جميعاً، وكانت تريد أن تصرخ في وجوههن: لماذا جنن وهن لسن مريضات؟!

ثم سألت نفسها: هل هي مريضة؟

واستعرضت كل ما تشكو منه، فخيل إليها أنها لا تشكو شيئاً.. وتحسست بخيالها موضع الكبد والمعدة والكلى فلم

تحس ألماً ولا مرضاً..

وقوى في ذهنها أنها ليست مريضة..

وفكرت أن تعود..

ولكنها بقيت أكثر من ساعة وهي تفكر في العودة من حيث أتت دون أن تعود.. إنما ظلت تحرق في سجاثرها وترقب كل سيدة يجيء دورها وهي تدخل إلى الطبيب في لهفة كأنها تسرع إلى موعد غرام، وترقبها وهي تخرج وعلى شفيتها ابتسامة تكاد تكون آهة ملؤها النشوة والراحة..

وجاء دورها..

وصاح خالد دهشاً عندما رآها:

عليّه هانم.. انت بقالك هنا كثير.. ازاي ما تقوليش انك جاية، وازاي ما تكلمينيش علشان اجيك انا؟

وقالت عليه وهي تحاول أن تختصر ابتسامتها:

المسألة ما تستهلش!

ولو.. كان برضه لازم تندهيلي.

يمكن حبيت اشوف عيادتك.. ده اللي يقعد فيها شويه يفكر انك دكتور امراض نسا..

وضحك الدكتور خالد قائلاً:

مفروض ان الجنس الناعم يعيا اكثر من الجنس الخشن..

اتفضلى!

وأشار لها على سرير جلدى في جانب من الغرفة، فوضعت حقيبتها فوق مكتبه، واتجهت إلى السرير وجلست عليه.

تسمحي!

ولس كتفها لمسة خفيفة فالقت نفسها فى بطنه حتى رقدت على السرير وهى تنظر إليه نظرات صامتة، بينما يطل عليها بابتسامته الطيبة وعينييه الحانيتين والعبير الهادىء المريح ينبعث من حوله ويدغدغ اعصابها..

رقدت.. ولأول مرة منذ وقت طويل تحس بالراحة..

وتتمنى لو استطاعت ان تغمض عينيها وتنام..

واحست به ينحنى فوقها، واحست باطراف اصابعه تلمس صدرها وهو يضع فوقه سماعته فتنبه فيها شىء واحست كأنها تريد ان تضع كفيها فوق صدرها حتى لا يعود. ويلمسه باطراف اصابعه..

ومال إليها برأسه ليتسمع دقات قلبها حتى لامست شفقتها خصلات من شعره، واحست كأنها تزم شفقتها وتخفيهما داخل فمها حتى لا يلمسا هذه الخصلات.

ونزع السماعة من أذنيه وأبقاها مدلاة فوق صدره ثم بدا يتحسس مواضع من جسمها وهو يسألها عند كل موضع: «هنا بيوجعك؟» فتقول «لا..» وكأنها لا تعنى الألم الذى لا تحس به، بل تعنى بها يده التى تتحسسها.

ثم قرب وجهه من وجهها حتى خيل إليها انه يهم بتقبيلها، وقلب باصابعه جفتيها ليرى لونهما ثم سألها:

انت بتنامى كويس؟

لا..

وايه كمان؟

لونى مش عاجبنى، واعصابى خسرانه!

وابتعد عنها، وجلس إلى مكتبه، ولحقت به وهى تسوى شعرها بيديها ثم جلست قبالة..

وواجهها بنظرته الحنون وابتسامته الطيبة وسألها فى هدوء وكأنه يحاول ان يخفف وقع السؤال عليها:

انت سعيدة يا عليه هانم؟

وفوجئت بالسؤال حتى احتقن وجهها وارتبكت وقالت وهى تحاول ان تبسم لتخفى ارتباكها:

طيب نفسانى حضرتك؟!

انا اقدر اكتب لك دوا منوم، واقدر اقولك غيرى هوا وما تسهريش ولا تتعيش نفسك وانت صحتك تتحسن وتعرفى تنامى كويس.. انما كل ده ما ينفعش.. المهم انك تكونى سعيدة علشان تعرفى تنامى واعصابك تتحسن..

وصممت عليه برهة ثم قالت:

وامتى الواحدة تبقى سعيدة؟

اما تكون راضية عن نفسها وعن اللى بتعمله؟

ورفعت عينيها إليه كأنها اعتقدت انه اهانها، فالتقت بنظرته الحنون وابتسامته الطيبة، فعدت وارخت عينيها وقالت كأنها تعترف:

واذا ما كنتش الواحدة عارفه ايه اللى تعمله علشان ترضى عن نفسها؟

ما تعملش حاجة.. تفضل ساكنة لغاية ما تعرف!

فيه ناس فضلم ساكتين لغاية ما ضاع عمرهم.. ويرضه ما

لقوش السعادة؟

انا عارف انك قعدت ساكته كثير.. بس كان لازم تسكتي
 كمان شوية!
 مش فاهمة؟
 فضلت ساكته طول ما المرحوم جوزك كان عايش.. مش
 كده؟

وطاأأت رأسها إلى الأرض وقالت كأنها تهمس:
 أبوه.. وما خدتش حاجة من سكاتي!
 ولما ما سكتيش بعد ما مات.. خدت حاجة؟
 وانقضت غاضبة:

ارجوك يا دكتور.. دى مش طريقة تكلمنى بيها!
 انا دكتور وبعالجك يا عليه هانم.. أسف اذا كنت حاولت ان
 يكون العلاج سريع وحاسم!

انا جايه لدكتور باطنى مش لدكتور نفسانى.. او رفوار!
 وقامت.. وقام معها وامسكها من كتفيها بقبضتين قويتين،
 وقال وهى تحاول ان تتهرب من عينيه، وتحاول فى ضعف
 اقرب إلى الاستسلام ان تتخلص من قبضتيه:

انا باعتبار نفسى مسئول عنك من يوم ما كنت باعالج
 جوزك.. وكنت دايم مستنى اليوم اللى تجيلى فيه او تندهيلى
 وتقوليلى انك عيانه.. من يوم ما شفك فى الجنية بعد ما مات
 جوزك، وانا عارف انك حتتعبي وانك حتجيني.. ومش ممكن
 حاسبيك من غير ما اعالجك واتم علاجك..
 وسكت..

ولم ترد، انما تمت لو تركها تلقى برأسها فوق صدره

وتبكي.. وعاد يقول لها وقد هدا صوته وتخللته نبرات الحنان:
 ارجوكى تتقى فييه يا عليه هانم.. انا مش بس دكتور.. انا
 صديق.. ويكره تعرفى صداقتى اد ايه..
 وهذأت عليه، وهذأت قبضتاه اللتان تمسكان بكتفيها، وقالت
 فى صوت كهمس الدموع:

انا تعبانه يا دكتور.. زهقانه من نفسى.. بيتهى لى ان ما
 ليش حد فى الدنيا.. مش عارقه اروح لمين ولا عمل ايه..
 اللى حيعالجك الصديق مش الدكتور.. كل اللى اطلبه منك
 انك تتقى فييه..

انا طول عمري باثق فيك، ولأ ما كنتش جيتك!
 وتسمعى كلامى..
 حاضر..

ولازم اشوفك كل يوم..

امرك يا دكتور..

ده امر صديق قبل ما يكون..

يعنى اجى بكره..

وابتسم خالد ولم يجب، وجلس إلى مكتبه وكتب فوق دفتر
 الوصفات الطبية بضع كلمات، ثم نزع الورقة وطواها قبل ان
 يعطيها لها ثم قال:

دى أول روشتة.. بس اقريئها كويس قبل ما تروحي بيها
 للاجراخانة!

وابتسم عليه وقالت فى استسلام:

حاضر..

وخرجت وخالد ينظر إليها حتى اختفت من الممر الطويل الذي يقع أمام غرفته، وقد اتسعت ابتسامته الطيبة حتى كادت تطير به..

ولم تنظر عليه إلى غرفة الانتظار التي مرت بها، ولم تر التمرجى وهو ينحنى لها مودعا، ولم تفكر في أن تمنحه «البقشيش» المعتاد.. وما كادت تصل إلى باب العيادة وقيل ان تدخل إلى المصعد، فتحت الورقة المطوية في يدها وقرأت:
«غدا.. الساعة الرابعة.. حديقة ميناهاوس»!

وبدا كأنها ستثور، وتقلصت أصابعها فوق الورقة كأنها تحاول أن تمرقها.. ولكنها غيرت رأيها، وارتدت الابتسامة إلى شففتها، وهذأت أصابعها فوق الورقة، وخيل إليها ان السحاب بدأ ينقشع.

وتنبهت على صوت عامل المصعد:

اتفضلى يا افندم..

وتفضلت..

وخيل إليها ان المصعد يصعد بها..

(٦)

ولم تتم ليلتها..

ولكنها لم تكن تعسة..

كانت تفكر، وكان كل شيء فيها كان يفكر.. عيناها وشففتها وانفها، وكأنها تسمع حفيف افكارها بأذنيها..

ولأول مرة تحس انها وجدت شيئا تفكر فيه ويستحق التفكير وتحس بذهنها المشتت وقد تجمع وانحصر في نقطة واحدة، ثم سرى في خيط واحد، وارتسم امامه شخص واحد خالدا!

وابتسمت وهي تستعيد في ذهنها ابتسامته الطيبة التي استقبلها بها..

وتهدت وهي تتصوره منحنيا عليها يتسمع دقات قلبها بسماعته، وتحسست بيدها موضع السماعه فوق صدرها، كأنها تتلمس ذكرى حبيبة تخشى ان تضع..

وتامت نظرتها وصوت سؤاله يرن في أذنيها: هل انت سعيدة؟

ثم عبست وهي تستعيد كلامه: ما قعدتيش ساكتة ليه بعد ما مات جوزك؟

ثم اتسعت ابتسامتها وهي تتذكر «الروشته» التي كتبها لها: «غدا.. الساعة الرابعة.. حديقة ميناهاوس»!

ومدت يدها تحت وسادتها وأخرجت «الروشته» وأخذت تقرأها ربما للمرة العشرين.. ثم.. ثم توقفت ابتسامتها قليلا فوق شففتها.. ثم اختفت الابتسامة فجأة كأن يدا قاسية قد امتدت إليها وخنقتها، وانطبقت شففتها فوق موجة من الغضب، وطافت بوجهها سحب مكفهرة، وارتفع امامها سؤال لا تريد ان تجيب عليه:

لماذا كتب لها هذه الورقة؟

ولماذا يريد ان يقابلها في ميناهاوس؟

ربما يعتقد فيها ما يعتقد بعض الناس.. ربما ظن انها

امراة سهلة مبتذلة يسهل على كل رجل ان يحدد لها موعدا،
ويسهل عليه ان ينال منها ما يريد!

انه يقول انه يعالجها!

هل هذه طريقة العلاج؟

هل تعود الاطباء ان يقابلوا مرضاهم فى ميثا هاوس!

لقد تجرأ عليها.. لقد اهانها.. كان يجب ان تثور فى وجهه،

بل كان يجب ان تعود إليه - بعد ان قرأت هذه الورقة -

وتصفعه.. ماذا يظن بها هذا المتكبر المغرور؟!

وظلت ساعة تتخط وسط هذه السحب القاتمة.. وقد اظلمت

الدنيا فى عينيها، وتقلصت اصابعها فوق وسادتها وكأنها

تقلصت فوق عنق خالد، وتمنت لو انه كان امامها لتنهال عليه

صفعا حتى تنتقم لكرامتها المهانة..

وتصورته وقد وقف امامها..

هل تصفعه؟

ولحت بخيالها ابتسامته الطيبة وعينيها يملأهما الحنان،

فاحست بالسحب القاتمة تنقشع من امام عينيها، وبأصابعها

المتقلصة فوق الوسادة تبيسط وتهدأ، واحست بابتسامتها

تعود بطيبة خجلة كأنها تخاف من شفقتها!

وتسائلت وكأنها تهز كتفها بلا مبالاة: ولماذا لا تقابله

وتذهب إلى موعدة؟!

انها منذ تعرفت بحورية هاتم وهى تقابل رجالا، اشكالا

والوانا، فلماذا لا يكون واحدا منهم.. حتى لو لم يكن قصده

علاجها، فماذا يضيرها لو جلست إليه واستمعت له وعرفته

اكثر مما تعرفه؟!

مم تخاف؟

الا تثق بنفسها؟!

وظلت تطوف بهذه الفكرة، أو هذه الفكرة تطوف بها.. وهى
فى خلال كل ذلك تحس بنفسها كما لم تحس من قبل.. تحس
بكل قطعة من جسدها:

لم تعد هذه الذراع مجرد قطعة منها تتدلى بجانبها، انما
أصبحت قطعة تحس بها وتحس بالدماء تجرى فيها، وتحس
انها قطعة غالية، ربما لانها اكتشفت انها تستطيع بها ان
تتعلق بذراع خالد، وتستطيع ان تحيط بها عنقه، وتستطيع بها
ان تضمه إليها..

ولم يعد هذان النهدان مجرد شيئين فوق صدرها، انما هما
كنز الحياة، تحس باستدارتهما، وتحس بهما وقد ارتفعا فوق
عرشهما العالى، وتحس بجمالهما وتكاد تلمس الحرارة فيهما،
ربما لانها أصبحت تعدهما لتيهيما لرجل، واصبح من حقهما
ان يلمسا صدر خالد، وان يضغظهما إليه، وان يسيطر على
عرشهما.

ولم تعد شفاتها مجرد مخرج لحديثها، انما أصبحت تحس
بهما كمحطة استقبال فى انتظار رسالة هامة، وأصبحت تحس
كأن شفتها العدا ثقيل شثتها السفلى، وكأن كلايهما تترديان
استعدادا للنقبة السرى.

كانت تحس بنفسها كما لم تحس من قبل.. تحس بكل قطعة
من جسدها.. بل انها، وبعد هذا العمر الطويل، بدأت تحس
انها انثى.

وطغى عليها هذا الاحساس دون ان تلتفت إليه أو تتبه إلى جدته عليها، انما كان كأنه احساس طبيعي هادئ، لذيذ كأنفاسها.

ونامت وبين عينيه حلم جميل.

واستيقظت وكأنها ترى الدنيا لأول مرة.. ولم تر في يومها كله إلا الساعة الرابعة، ولم تر فيه مكانا الا حديقة ميناهاوس.. وفتحت دولا ب ملابسها في الساعة العاشرة صباحا لتنتقى الثوب الذي ترتديه، وقلبت في حقائبها الصغيرة لتختار الحقيبة التي ستمسك بها، وقلبت في مناديلها الكبيرة لتختار المنديل الملون الذي يتفق مع لون الثوب، وفتحت صندوق الحلى لتقرر أي الحلى تختار.. وهي في كل ذلك لا تذكر الا الساعة الرابعة وحديقة ميناهاوس، وتنتقل في أرجاء حجرتها سعيدة خفيفة كأنها ملاك من نور ينتقل فوق قطع صافية من السحاب، وترنم في صوت خفيض يكاد يرتفع حتى يصبح غناء.

وفي الساعة الثانية عشرة وقفت امام المرأة تمشط شعرها.. ونظرت إلى نفسها طويلا، ترى خطوط جمالها وكأنها تراها لأول مرة، وتمسك بخصلات من شعرها تتحسسها في كفها وكأنها لم تكن تدري ان لها شعرا يمثل هذه الغزارة ويمثل هذه النعومة، ويمثا، هذا الغنى في الجمال.

وكان السعادة قد فاضت بها حتى عجزت عن حملها، فقد القت المشط من يدها وكفت عن الترنم، وعلا وجهها شيء من الجد، وتهدت كأنها تستغيث من نفسها، وعادت تفكر كما كانت تفكر في ليلها: لماذا تذهب إليه؟

وعادت تتصور انه اهان كرامتها، وانه اعتبرها امرأة سهلة، وانها لا يجب ان تذهب إليه لمجرد انه حدد لها موعدا.. وحاولت ان تطرد هذا الخاطر من ذهنها، ولكنها كانت كلما طردته عاد إليها، وكلما حاولت ان تفر منه لحق بها..

واتخذت قرارا صممت عليه: ستذهب!

وعادت تكمل زينتها، ولكنها لم تعد تترنم، ولم تعد سعيدة خفيفة تنتقل كأنها ملاك من نور، انما داخلها شعور كأنه الخوف والرهبة، ولاحظت ان يدها ترتعش حتى سقط اصبع «الروح» من بين اصابعها وكادت تتحطم زجاجة من زجاجات العطر، وخيل إليها ان قلبها يهوى في صدرها حتى كاد يسقط تحت قدميها، ويرتفع حتى يكاد يقفز من بين شفتيها..

ولم تستطع ان تتناول شيئا من غدائها، انما جلست إلى المائدة وحيدة صامتا تدخل في فمها اشياء لا تعرف ما هي.. وخيل إليها انها قضت مدة طويلة جالسة إلى مائدة الغداء فهبت مسرعة إلى مراتها.. وعادت إلى زينتها، وعندما نظرت إلى ساعتها، لم يكن الوقت قد تجاوز الثانية.

والقت بنفسها على مقعد وامسكت بأحدى المجلات تحاول ان تقرأ، واحست انها تعبئة منهكة، وان يديها باردتان، واحست ان التعب والانهاك قد افسد زينتها، وان وجهها لابد قد غرق في صفرة، وان لهن شفتيها قد بهت، وان ثوبها لابد قد تهدل وتثنى فوق بدننها، وهمت ان تعود ثانية إلى مراتها ولكنها احست بثقل في اطرافها، وخيل إليها انها لن تستطيع ان تقوم من مكانها..

لقد كان اول موعد غرام في حياتها..

هل هو موعد غرام؟

انها لا تدرى، ولا تريد ان تدرى.. ولكنها تتمنى لو لم يكن هذا الموعد، ولم يكن هذا الرجل..

ولحت عقارب الساعة تحدد الثالثة.. هل تذهب الآن؟

ان المسافة بين مصر الجديدة وميناهاوس تستغرق ساعة على الاقل، ولكنها يجب ان تتأخر قليلا.. لن تخرج من بيتها قبل الساعة الثالثة والنصف!

وقامت قبل ان تمر خمس دقائق كاملة.. وربما كانت هذه الدقائق الخمس اطول من ساعة كاملة.. ولقت نظرة اخيرة على مرآتها، لم يكن فيها هذا الاهتمام ولا هذه العناية التي كانت تبديها في الصباح.

وقبل ان تخطو نحو الباب دق جرس التليفون، وترددت قبل ان تلتقط السماعه، ثم التفتها بيد لا تحس بها.

وارتجفت يدها وهي تسمع صوته:

عليه هانم.. انا خالد..

وقالت فى صوت مرتعش:

بونجور يا افندم..

انا كنت خايف تكونى نزلت من البيت.. انا اسف جدا مضطر الآخر الميعاد.. لازم ازور عيان دلوقت حالا.. حالته خطرة جدا.. حاتصل بيكى اول ما اخرج من عنده..

واحست كأنها ستقع على الارض، واستندت على الحائط حتى لا تقع، وطاف بذهنها انتظارها الطويل الذى صبرت عليه منذ الصباح، وخيل لها انها لن تستطيع ان تنتظر دقيقة واحدة

اخرى، بل خيل إليها انها ستجن لو حاولت ان تنتظر، وانها تريد ان تفر كما قضت عمرها كله فى الفرار من نفسها..

وبذلت كل قواها حتى تماكنت اعصابها وقالت فى صوت بارد يكاد يفضحها، وهى تتظاهر بعدم المبالاة:

مش فاهمة.. ميعاد ايه يا دكتور؟!

ميعادنا النهارده.. الساعة اربعة فى ميناهاوس!

تقصد الروشته؟!

ارجوكى يا عليه.. انا مستعجل.. الراجل حيموت!

وانا مالى يا دكتور.. انا اخرتك عنه!

عليه.. وحياتى عندك ما تكلمينيش بالشكل ده.. ماكانش فيه حاجة فى الدنيا تقدر تأخرنى عنك.. لكن انا دكتور يا عليه ولازم تقدرى واجبى!

وصرخت فيه رغم ارادتها:

لو كنت انت بتقدر واجبك ما كنتش ادتنى ميعاد علشان

تعالجنى فى مينا هاوس!

وصاح خالد كأنه اصيب بطعنة:

عليه!

وقالت عليه وقد ضعف صوتها كأنها تناجيه أو كأنها تحدث نفسها، وهى لا تدرى انها بدأت تبكى وان سماعه التليفون تلتقط دموعها:

مين قالك انى كنت جاية فى الميعاد.. مين قالك انى قعدت طول الليل امبارح افكر فيك.. مين قالك انى قاعدة من الصبح اختار القستان اللى حلبسه لك.. مين قالك انى مش قادرة اتلم

على نفسي من ساعة ماشفتك، ومن ساعة ما قرئت الروشتة..
اللى قالك كده كداب.. ستين كداب.. انا ما كنتش جاية، وما
كنش ممكن آجى.. انت جريء اللي تكتب روشتة زى دى..
أورفوار يا دكتور، وما تخافش عليه، انا مش عيانه للدرجة دى!
ورفعت سماعة التليفون من فوق اذنها وانزلتها ببطه الى
مكانها وصوت خالد يصل إليها وهو يصرخ:
عليه.. عليه..

وعندما وضعت السماعة فى مكانها، القت نفسها فوق
مقعد وانفجرت فى البكاء، وكأنها تذرف من عينيها عمرها كله.
□□□

وهدأت اعصابها على شاطئ دموعها، وشعرت كأنها بدأت
تسترد انفاسها بعد ان جرت شوطا بعيدا استغرق يوما كاملا
وهى تجرى.. وبدأت تسائل نفسها من جديد:
لماذا تبكى؟

لقد اعتذر عن مواعده.. لماذا لا يعتذر؟ واى حق لها عليه
يمنعه من الاعتذار؟ انها واحدة من مريضاته.. انها «حالة»
يعالجها كطبيب، ومن حقه كطبيب ان يقدم مريضا على آخر،
وان يقدم «حالة مستعجلة» على حالة تستطيع الانتظار!
ما الذى يدعوهما إلى الاعتقاد بأنها أكثر من مريض وأكثر
من حالة؟!

ربما كان الموعد الذى حدده لها فى ميناهاوس هو فعلا
جزءا من العلاج!
وقد قال لها انه صديقها قبل ان يكون طبيبها.. وربما كان

صادقا فى قوله، وربما كانت صداقته التى وعدها بها لا تعدو
ان تكون نوعا من الدواء ينصحها به، إلى ان تشفى ثم يجرمها
منه!

واستعرضت الكلام الذى قالته له فى التليفون.. كيف
استطاعت ان تقول له كل هذا الكلام.. اين كان كبرياؤها، واين
كان حياؤها، واين كانت عزتها؟ انها كادت تعترف له بكل ما
حدث لها منذ حدد لها مواعده، بل انها اعترفت فعلا، وربما لمح
دموعها خلال اعترافها..

وغطت وجهها بيديها كأنها لا تريد ان ترى ما بداخل
نفسها، ولا تريد ان تحس بنفسها وضميرها يمزق صدرها،
وتتمنت لو استطاعت ان تسترد كل كلمة قالتها وتبتلعها من
جديد، بل تتمنت لو لم تولد وتعيش حتى تنهار اعصابها هكذا
امام رجل..

لا بد انها مريضة باعصابها..

ولم تشعر انها مريضة قدر ما تشعر الآن، ولم تشعر انها
فى حاجة إلى طبيب قدر حاجتها الآن.. اى طبيب.. بل خالد
بالذات؟!

ولكن اين خالد.. انه ذهب ولن يعود بعد ان طعنته فى
شرف مهنته واتهمته بانه لا يقدر واجبه..

اين خالد.. انها تريد.. تريد الآن.. تريده كطبيب لا
كصديق ولا كأى شىء آخر.. طبيب يريحها من اعصابها،
ويريحها من افكارها السود..

وقامت تطوف بغرف البيت كأنها مجنونة، وصورة خالد
تقفز من امامها ومن خلفها وتلاحقها فى كل خطوة. وخيل

إليها انها تريد ان تصرخ كما يصرخ المجانين، بل خيل إليها انها فعلا تصرخ بلا صوت.. وفتحت الراديو ورفعت صوته إلى آخره حتى طغى على صوت صراخها.

ودق جرس التليفون..

والتقطت السماعة فى لهفة كأنها تنتظر تجدة..

وسمعت صوت عادل..

وارتسمت على وجهها صور من الامل الخائب، ولم تلتقط اذنها كلمة مما كان يقوله لها، انما قالت فى صوت خفيض يائس:

تعال..

قالتها كأنها تودع الدنيا..

ودخلت إلى غرفتها، ووقفت امام مراتها تخفى آثار الدموع من عينيها ومن فوق وجنتيها، وخيل إليها وهى تنظر إلى مراتها انها شاخت فى يوم واحد عشر سنوات..

وجاء عادل وقال ضاحكا:

حانخرج ولا حنقعد؟!

وقالت وهى تنتزع الكلمات من بين شفتيها:

لا.. خارجين!

ونظر عادل إلى وجهها مليا وقال وقد سحب ابتسامته:

مالك.. حصل حاجة؟!

وقالت فى عصبية حادة:

ما حصلش.. هو انت كل ما تشوفنى لازم يكون حصل

حاجة؟!

بس شايفك مش طبيعية.. انت كنت عيانه.. حاسة بحاجة؟! واشتدت عصبيتها:

يا اخى ما فيش حاجة.. هو لازم اكون يافرحانه يا زعلانه.. لا انا فرحانه ولا انا زعلانه.. كل اللى حصل انى ما نمتش كويس امبارح!

طيب ما تشخيطيش فيّه كده.. انت ما نمتيش بيقى انا ذنبى ايه.. الحق على اللى باطنن عليكى.. على فين ان شاء الله؟! اى حته..

نروح لحورية؟!

ولم ترد عليه انما خرجت وخرج وراءها، ووقفت فى انتظار المصعد وهى تدق الارض بقدمها.. وجاء المصعد، وفتحت ابوابه وهمت بالدخول.. ثم تراجعت وقد تتلجت اطرافها ولم تعد ترى الا وجه خالد وكأنه صورة معلقة فى الهواء..

وقال خالد وهو يلتقط يدها الثلجة فى يده وابتسامته! الطيبة تدرها وتشعرها بالدفء:

الحمد لله.. انا حظى كويس معاكى.. دى تانى مرة النهارده الحقك قبل ما تخرجى..

ونظر إلى عادل من طرف عينه نظرة خاطفة ثم تجاهله وعاد يقول لعلبّه:

تسمى نرجع تانى..

وقالت عليه وهى لا تزال فى وقفاتها وكأنها سمعت فى مكانها وطافت بوجهها سحابة فى لون الشفق تبشر بظهور النور، وقالت مرتبكة وهى تضغط بيد على الأخرى:

قال وهو لا يزال يدثرها بابتسامته:
خمس دقائق بس.. اطمن فيها على صحتك!
بس.. اصل..

وتنبهت إلى وجود عادل فزاد ارتباكها وقطعت حديثها،
وقالت وهي تقدم احدهما إلى الآخر:
عادل بيه.. الدكتور خالد!
ومد عادل يده مرحبا:
بونسووار يا دكتور..
تلقي خالد يده في برود:
اهلا وسهلا!

وساد الصمت ثلاثتهم برهة وهم لا يتحركون من اماكنهم،
وعليه لا تزال في ارتباكها، ولا تزال تضغط يدها بالآخرى، ثم
خيل إليها ان من واجبها ان تقطع هذا الصمت، فقالت وهي
ترفع عينيها في تردد إلى خالد:
وازاي صحة دلوقت؟!

وظهرت الدهشة على وجه خالد وكأنه يحاول ان يتذكر
الشخص الذي تسأل عليه عن صحته، ثم قال وقد اعجزه
التذكر:

مين؟!
وقالت في لهفة كأنها تسأل عن عزيز لديها:
العيان اللي كان حيموت!
واتسعت ابتسامة خالد حتى كاد يضحك وقال وهو يفتعل
الجد:

كوبس الحمد لله.. على الاقل مش حايموت النهارده!
ثم اشار لها بيده الى باب الشقة في رجاء:
تسمحي..

ونظرت الى عادل ثم عادت تنتظر إليه ولم تتحرك من مكانها
فاستطرد خالد قائلاً:

اظن عادل بيه ما عندوش مانع اننا نرجع نقعد في الشقة
شوية.. صحتك أهم من كل حاجة.
وقال عادل في صوت مرتفع ضاحك كأنه يحاول ان يبدي
اهميته في حياة عليه:
والله يا دكتور انا كنت لسه باسألها عن صحتها دلوقت
فزعلت مني.

ونظر إليه خالد من تحت جفنيه وقال وكأنه يعنيه:
دى صحتها مش كويسة ابدًا!

ثم التفت إلى عليه وهو يهز حقيبة ادواته الطبية في يده كأنه
ملّ هذا الانتظار وقال في حزم:
تسمحي يا عليه هانم..

والتفتت عليه إلى عادل وقالت كأنها تتودد إليه:
اسبقتي انت يا عادل عند حورية هانم.. وأنا حاحصلك أول
ما يخلص الدكتور!

وقال عادل راضياً:
حاضر!

ومد يده إلى خالد مصافحاً، وصافحه خالد كأنه لم يكن
هناك لزوم لهذه المصافحة، ثم دخل الى المصعد ومدت عليه

نراعتها تساعده في غلق الباب على نفسه.. ونزل به المصعد، وتلكأت عليه برهة كأنها تريد أن تطمئن إلى أنه نزل من حياتها!

والتفتت إلى خالد وهي لا تكاد تنظر إليه ثم سارت إلى شقتها وسار خلفها، وخيل إليها أنها ترتبك في خطواتها حتى أصبحت تهتز في مشيتها، وخيل إليها أنها لا تستطيع أن تسيطر على ساقها حتى لا يهتز جسدها مع خطواتها.. ولم يكن جسدها يهتز، ولكنه وهم صورته لها ارتباكها!

وأشارت إلى مقعد وقد اصبحا في حجرة الاستقبال داخل الشقة:

اتفضل..

ولم يجلس خالد على المقعد الذي أشارت إليه بل جلس على الأريكة دون أن يبدي اهتماما بإشارتها.. ونظرت عليه إليه ثم اختارت لنفسها ابعـد المقاعد عنه.

ولم يدر أحد منهما من أين يبدأ، واحاط بهما الصمت برهة وخالد يفحصها بعينيه كأنه يبحث في وجهها عن شيء، وهي لا ترفع عينيهما إليه، إلى أن قالت وكأنها تستعين بالله على الكلام:

أنا أسفة يا دكتور على الطريقة اللي كلمتك بيها في التليفون.. أنا ما..

وقاطعها خالد بصوته المليء الحنون:

ما فيش داعي للأسف أبدا.. أنا عارف أنك عيانة!

ورفعت عينيهما في غضب مفاجيء وقالت وكأنها تتبرأ من تهمة يلصقها بها:

أنا مش عيانة.. صحتي كويسة والحمدلله!

وقال لها وصوته يصل إليها هادئا حتى يتخلل اعصابها:

لو جيتي جنبى هنا اقدر اقولك اذا كنت عيانة ولا لا.. مش ممكن اكشف عليكى وأنا بينى وبينك عشرة امتار.. لسه ما استعملوش الرادار فى الطب.

وقالت وصوتها لا يكاد يرتفع:

برضه مصمم!

ثم قامت على استحياء كأنها عروس صغيرة تخطو إلى عريسها في ليلة الزفاف، وجلست عند حافة الأريكة التي يجلس عليها، واستدار إليها قائلاً:

أنا مش قادر اتصور ازاي الدكتور يقدر يتجوز.. وازاي يلاقى واحدة تستحمله وتستحمل مواعيده للمخبطة اذا كان ما فيش عيانة بتستحمله!

وقالت وكأنها غضبت:

قلتلك يا دكتور أنا مش عيانة.. انت اللي عاوز تعيبنى بالعافية.. اتفضل اكشف على قلبى وعلى كل ححة فيه وانت تعرف انى بمب.. امسك الخشب!

وقال خالد وكأنه يزيح عن عينيهما الغمام:

العياء مش فى القلب دايمًا.. ولا فى المعدة ولا فى الكبد ولا فى الجسم كله.. واؤكد لك ان حتى اعصابك مش تعبانة.. انما عياكى فى حياتك نفسها.. فى عمرك.. والعياء اللي يصيب العمر يبقى احيانًا اخطر من عياء القلب والمعدة والكبد مع بعض..

وقالت عليه وهي تنظر إليه متسائلة وكأنها تهمس لنفسها:
حياتي.. عمري.. عمري عيان ازاي يا دكتور؟
عمرك اتلخبط.. ما خدش سيره الطبيعي..
وعرفت منين؟!
من يوم ما شفتك وأنا باعالج جوزك..
ازاي؟!
كنت ست جد خالص اكثر من اللازم.. واكبر من سنك..

عمري ما كنت اشوفك تضحكي، أو تتسلي، أو تسمعي رايدو،
أو تتكلمي كلمة فارغة واحدة أو تنكتي نكتة حتى لو كانت
بايخة.. دايمًا مكشرة، ودايمًا تتكلمي جد، وتمشي تدبي زي ما
تكوني عسكري بوليس.. وما كانش فيه داعي لده كله، كان
مرض زوجك لسه ما بقاش خطير، وكانت الدنيا كلها بتضحك
حواليكي.. غنية، وجميلة، ومحبوبة، ومش ناقصك حاجة، بيبقى
ايه لزوم التكشيرة دي.. خلقتيني أقعد افكر فيكي زي ما اكون
بقرا كتاب مش فاهمه..
فكرت كثير!

واستطرد كأنه لم يسمع مقاطعتها:

فكرت كثير قوي.. يا ترى الست دي مكشره ليه، ومالها
بتلبس كده زي العواجيز، وعاملة شعرها زي الصورة بتاعة
ستى الله يرحمها!.. وكنت عرفت انك اتجوزت وعندك
خمستاشر سنة، وان جوزك كان عنده خمسين سنة، وان من
يوم ما اتجوزك ما سبكيش لوجدك ابدًا.. ما كنتيش تخرجي
الا معاه، ولا تزوري حد الا معاه، وكان ياخذك يقعدك فى
العزبة بوزك فى بوزه ست أشهر فى السنة.. كل ده عرفته من

قرايبك وصاحبائك.. واستنتجت انه لازم معيشك زي عيشته،
وانه سيطر عليك لغاية ما خلى عقليتك زي عقلته، وتفكيرك زي
تفكيره، وحركاتك زي حركاته، ومزاجك زي مزاجه.. يعنى نظ
بيكى من سن خمستاشر سنة لسن الخمسين مرة واحدة..
وخلاكى عايشة زي امي كده!

وقالت فى خفر:

ما تبالغش يا دكتور..

مافيش فى كلامي مبالغة ابدًا.. يمكن امي كانت ايامها
اصغر منك شوية، على الاقل كنت باسمعها ساعات بتضحك
ولا بتغنى مع الراديو!
وقالت فى صوت خافت حزين كأنها تستعرض فيلمًا
سينمائيًا يصور حياتها تصويرًا صادقًا:

ده صحيح!

وعاد خالد يقول:

وبعدين..

وسكت قليلًا، وتنبهت عليه كأنها تخشى ان ترى صور
الفصل الثانى من فيلم حياتها، وقالت فى رجفة وهي تنظر إليه
بعينين حائرتين كأنها تتوسل إليه ان يرفق بها:

وبعدين ايه..

واستطرد خالد وقد تباطأت كلماته فوق شفتيه وازداد
صوته عمقا..

وبعدين جوزك مات الله يرحمه، وتنبهت لنفسك، خرجت من
دنيا العواجيز اللى كان معيشك فيها، وعرفت انك ما تمتعتيش

بعمرك، وإن قطار الحياة ما وقفش بيكي على محطات شبابك..
 وخدك زى الأكسبريس لآخر محطة فى عمرك.. وقفت حيرانة
 مش عارفة تعملى إيه ويمكن عيطتى زى البنت الصغيرة التايهة
 بقهورى على شبابك وخايفة يكون ضاع وما تلقهوش.. وبعدين
 قررت انك تاخدى الأكسبريس نفسه وترجعى بيه لغاية المحطة
 اللي ركبتيه منها.. ونزلت منه فى محطة خمستاشر سنه،
 وابتديتى تعيش اصغر من سنك بعد ما كنت عايشة اكبر من
 سنك.. ابتديتى تركبى بسككتات وتلعبى مع العيال الصغيرين،
 ومين عارف يمكن كنت بتنطى حبل وتلعبى استغماية.. وابتدت
 الناس تتكلم عليكى.
 وسكت خالد..

وكانت عليه واجمة تنظر إلى بعيد.. إلى لا شىء.. وقد
 جمعت خواطرها فى دموع استقرت فوق رموش عينيها
 وخذلها الضعف فلم تحدر فوق وجنتيها، وقالت فى صوت
 محشرج كأنه من ابعاد ايام عمرها:
 ولما عرفت ده كله، ما لحقتنيش ليه.. ما جيتش تعالجنى ليه
 قبل الناس ما تتكلم عنى؟!

وعاد الصوت الملىء البطيء يقول فى أسف وحسرة:
 ما كنش ممكن أقدر اعالجك.. اللي حصل كان لازم
 يحصل، كان رد فعل طبيعى لحياتك مع جوزك.. وكنت ايامها
 بتعتبرينى واحد من الدنيا اللي بتهربى منها.. وكنت بافكر
 بجوزك وبعمرك اللي ضاع منك.. ويوم ما هربت منى فى
 الجنية بعد ما مات جوزك عرفت انى لازم استنى لغاية ما
 تجلى..

وقالت وهى لا تزال ساهمة تنظر إلى بعيد.. الى لا شىء:
 جيتك علشان تعالجنى.. مش كده!
 ايوه.. جيتى لانك لقيت نفسك تايهة مرة ثانية.. مش عارفة
 عمرك فين!
 وكل الكلام اللي قلته ده يعتبر جزء من العلاج طبعا!
 وسكت خالد، ونكس رأسه الى الارض برهة، ثم رفع رأسه
 كأنه لم يعد يصبر أكثر مما صبر، ونظر إليها قائلا، وشفتاه
 تخفقان بنبضات قلبه:
 الكلام ده قلته علشان باحبك يا عليه!
 والتفتت إليه فى بغة كأنها لا تصدق ما سمعته، وصاحت
 فى صوت هامس:

خالد!

ومد كفيه والتقط بهما كفيها وضغط عليهما بقوة كأنه
 يشعرا بقوة حبه وقال بياجها:
 انا باحبك من يوم ما شفتك يا عليه.. من يوم ما كان عندك
 خمسين سنة.. وجوزك ما كانش بيكذب يوم ما قال اننا بنحب
 بعض.. الموت كشف عنه الحجاب وخلاه يعرف اللي كنا احنا
 نفسنا خايفين نعرفه.. كنت باحبك وانا مش دارى وكان بيتها
 لى ان اهتمامى بيكى لمجرد انى دكتور وانت زوجة العيان..
 وبعد ما مات جوزك فصلت صابر على حبى، مستنى اليوم
 اللي تعرفينى فيه.. كنت باعتبرك فى غيبوبة وكنت عارف انك
 حتفوقى منها، ولو كنت اتأخرت كمان يومين كنت جيت فوقتك
 بالعافية..

وكانت تطوف بعينيها فوق وجهه، كأنها لا تصدق عينيها ..
ونقلت دموعها فوق رموشها حتى بدأت تنحدر فوق وجنتيها ..
ثم ألتفت برأسها فوق صدرها هامسة:

يا حبيبى ..

ثم أطلقت دموعها حتى أجهشت بالبكاء ..

ومد ذراعه وضمها إليه فى حنان وأسند رأسه فوق رأسها،
وانطلقت خصلات من شعرها تقبل شفتيه فى شوق وتزاحم
كأنها وجدته بعد يأس طويل ..

وهمس:

عليه!

واستراحت فوق صدره، وابتسمت ودموعها فوق وجنتيها،
ومد يدا رقيقة حانية يدفنها الحب ورفع وجهها إليه ونظر إليها
طويلا وهى مستسلمة هادئة مغمضة العينين فى انتظار شئ
تريده ولا تدريه، وتخاءة وتوجاه ..

ومال إليها ..

واحست بشفتيه تحتضنان شفتيها ..

واحست بنفسها وقد أصبحت مجرد شفتين ..

والتهب وجهها حتى تبخرت الدموع من فوق وجنتيها ..

وذابت حتى أصبحت كلها حبا ..

كانت القبله الأولى فى حياتها ..

وكانت تكفى لتروى حياتها كلها ..

وعندما افتقرت شفتاه عن شفتيها .. نظرت إليه ثم نظرت
إلى شفتيه كأنها تبحث فيهما عن سر الحياة .. ثم عادت

تغمض عينيها كأنها تريد ان تبقى محتضنة شفتيه بخيالها،
ولم تتكلم حتى لا تقع كلماتها فوق موضع القبله من شفتيها ..
وقال وصوته كله حب:

انا مش عارف ازاي عشنا السنين دى كلها من غير بعض.

قالت فى صوت خفيض:

مين قال اننا كنا عايشين!

وامسك بكتفيها وقال وعلى شفتيه ابتسامه:

مهما عشنا مع بعض، فيه حاجه مش عايزك تنسيها ابدأ ..

خير ..

انى دكتور ..

انسى ازاي .. واذا ماكنتش دكتور كنت عرفتك ازاي؟!

والدكتور اللى حتعيشى معاه عيادته الساعة سابعة،

ودلوقت السابعة سابعة وربع!

وضحكت عليه:

ما انت كنت فى عيادة .. كنت بتعالجنى!

انت الوحيدة اللى بعالجك بقلبي .. وحافضل طول عمري

اعالجك بالشكل ده .. مش حاسم لك تخفى ابدأ!

وقام والتقط حقيبته ..

وقامت ووقفت قبالة لا تريد ان تنظر إليه ..

وانحنى وقبلها على جانب من شفتيها، وقبله كالهمسمة

الحلوة.

وقالت وهى تودعه:

ربنا معاك ..

والتفت إليها قبل ان يخرج:

ما اظننش حتخرجى النهارده؟!

وهزت رأسها علامة النفى دون ان تتكلم، وشببت على اطراف اصابعها وبين شفيتها ابتسامة، وقبلته بابتسامتها..

ووقفت تطل عليه حتى اختفى داخل المصعد، وعادت إلى غرفتها لا تريد ان تفكر فى شىء، ولا تريد ان تسرع فى مشيتها، أو تمد يدها إلى ما حوله.. كل ما تريده هو ان تحفظ ذكرى هذه الساعة، وان لا يشغلها شىء عن ذكراها، وكأنها لو اسرعت فى مشيتها قد يسقط شىء من لمساته، لو مدت يدها قد يهتز شىء من قبلته، ولو فكرت فقد يخدعها عنه عقلها..

وسارت إلى غرفتها والنور من حولها والملائكة تطوف بها.. وجلست على فراشها وهى بثيابها، لا تريد ان تبديلها بعد ان حملت آثار يديه وتشبعت بعطر انفاسه..

ودق جرس التليفون..

دق طويلا قبل ان تمد يدا مخدرة، خدرها الحب، وتلتقط السماعه..

وسمعت صوت عادل..

وفزعت وافاقت من حلمها الجميل..

انه صوت الماضى.. ماضيها..

هل تستطيع ان تتخلص من ماضيها.. هل تستطيع ان تلقى السماعه فى وجهه؟

وسمعه يناديها فى الحاج:

الو.. الو.. الو..

ولم تجب.. وعاد يلح:

الو.. الو..

واجابت.. وسمعه:

مالك.. الدكتور قالك ايه؟

قالت وهى لا تدري ما تقول:

ولا حاجة..

ولا حاجة ازاي.. مالك يا عليه؟!

قاللى انى عيانه.. ولازم استريح!

يعنى مش جاية؟!

لا.. اورفوار!

وخيل إليها ان النور قد تبدل إلى ظلام، وان الملائكة قد هربت من حولها.. ولحت بقعة سوداء فوق رداء الملك الطاهر!

(٧)

وأصبحت تخاف من عادل.. تخاف من ماضيها!

ولم تستطع ان تقف فى وجه هذا الماضى أو تحذفه من عمرها.. لم تكن تستطيع ان تطرده من بيتها اذا دخل أو تلقى السماعه فى وجهه اذا حدثها فى التليفون.. أو تصفعه وهو ينظر إليها بابتسامته العابثة الهازئة التى تكيدها وتثير اعصابها.. انما كانت تتحايل عليه وهى تتهرب منه.. كانت تدعى المرض اذا دعاها للخروج معه، وتدعى وجود ضيوف حولها حتى تقطع حديثه فى التليفون، وتبتسم له زورا وبهتانا

إذا التقت به.

لقد هربت منها شجاعتها التي قررت يوما ان تقابله بها.. وسألت نفسها أكثر من مرة: «لماذا لا تطرده وتنتهي منه.. لماذا لا تسيطر عليه بشخصيتها كما تعودت.. وما سر هذا الخوف؟» وعرفت السر.. انها لم تكن تخاف شيئا أو تخاف على شيء..

لم يكن لها ماض تخاف منه على حاضر، بل كانت بلا ماض ولا حاضر، وكانت الايام كأنها وقفت من حولها لا تتحرك بها. ثم تحركت بها الايام، وأصبح لها حاضر تخاف عليه، ولها ماض تكرهه.. أصبحت تخاف من ماضيها على حاضرها، تخاف منه على خالد، وعلى حبيها.. ولكنها كانت تنسى هذا الماضي، وتنسى عادل، وتنسى خوفها.. كلما ضمها لقاء مع خالد..

كان يقابلها في كل وقت لا يقابل فيه مرضاه.. فاذا ما افرقا جمعهما التليفون في حديث لا ينتهي الا اذا تئاب الفجر فوق شفاهما، حديث ليس له معنى الا انهما يتحداثان، وليس له رابط الا انه يسمع صوتها وهي تسمع صوته.. ووجدت عمرها كله فيه..

كانت تحس انها في الخامسة عشرة عندما يذهبان الى صحراء الهرم ويستأجران حمارين يتسابقان عليهما، أو عندما يركبان سويا جملا فتحس انها ارتفعت معه الى السماء في قافلة تتجه بهما نحو الجنة، وتتعلق بكتفيه وهي خلف ظهره وخطوات الجمل تهزها في عنف، فتضح كما لم تضحك في صباها قط، وتتطاير ضحكاتها مع خصلات شعرها في

مسرى النسيم.

وكانت تحس انها في العشرين، عندما يضمها بين ذراعيه، ويحتضن شفيتها بشفتيه، فيندلع منها الشباب حتى تتصور وجنتاها، وتشتعل اطرافها، ويلتهب كل ما فيها.. فتضمه.. وتضمه اكثر.. لتحتسى به من النار!

وكانت تحس انها في الاربعين عندما بدأت تهتم من جديد بإدارة عزبتها وبانباء المحاصيل، وعندما أصبح لزاما على ناظر العزبة ان يحدثها في التليفون كلما جد جديد، وان يحضر الى القاهرة كل اسبوع ليقدم لها قائمة الحساب.

وكانت تحس انها في الستين عندما تجلس وحيدة تحاول ان تسبق بخيالها الزمن، فترى نفسها عجوزا لا تزال تحتفظ بابتسامتها وطيبة قلبها ونشاطها، وترى بجانبها خالدا وقد هرم وأصبح يتوكأ على عصا وابتسامته لا تزال بين شفتيه، والحنان يطل من عينيه، ولا يزال يمد ذراعيه ليحتضنها إليه وكأنهما لم يلتقيا إلا اليوم، بينما صراخ ابنائهما واحفادهما يملأ من حولهما البيت، كأنهما يعيشان في حفل دائم لا ينتهي منذ بدأ.. كانت تتخيل كل ذلك وتتلفت حولها كأنها ترى خالدا وهو يتوكأ على عصاه فعلا، ثم ترى اولادها واحفادها.. وتبتسم ابتسامة هنيئة كأنها ضمننت المستقبل واطمأنت إليه.

وعرفت ان العمر لا يحتسب بالسنين، ولكنه يحتسب بالاحساس وان الاحساس لا يكتمل ولا ينضج الا بالحب!! وعرف الناس كلهم الفصل الاخير من قصتها..

عرفوا انها احبت خالدا، وان خالدا احبها.. وبدأت الألسنة تطوف بهما وتؤدى مهمتها المعتادة في مثل هذه المناسبات..

وكان أطول هذه الألسنة لسان حورية هانم، فقد صعب عليها ان عليه لم تعد تتردد على بيتها، ولم تعد تدعوها إليها، وانها تتعمد ان تقطع ما بينهما حتى لم يعد بينهما شيء.. صعب عليها كل ذلك فاخذت تظلمها وتختلف عنها وعن خالد المواقف والقصاص، وتشهر بها في كل مجتمع..

ولم تسمع عليه ولا خالد شيئاً من كل ما يقوله الناس، وكانهما يعيشان في دنيا ليس فيها ناس.. ولم يعد احد يراهما، الا رؤية الصدف.. لم تعد عليه تخرج إلى حفل أو تزور أو تزار، انما أصبحت ايامها انتظارا لا تمله ولا تسأله الى ان ينتهى خالد من عمله فلتلقى به أو تعيش معه فوق اسلاك التليفون.. وأصبح خالد لا يرى في غير عيادته أو في غير زيارات مرضاه، فهو اما مع عليه أو مع صوتها..

لم يسمعا شيئاً من كلام الناس.. ولكن عادل سمع الكثير، وبدأ يثور فيه غرور الشباب، واعتقد فيما بينه وبين نفسه ان خالد اعدى على حق له.. وانه كان يرضى بان لا تكون عليه له ما دامت ليست لأحد، اما اذا أصبحت لواحد فيجب ان يكون هو هذا الواحد.

ويدأ يشعر ان اسم عليه في المجتمعات أصبح يقترون باسم خالد لا باسمه، وأصبح لا يستطيع ان يتباهى بها امام بقية النساء، ويجتذبن إليه على حسنها، بل أصبح النساء ينظرن إليه كأنه فضلات حب، لا يشرفهن وجوده ولا يتباهين بصدافته.. وأصبح كلما ذهب إلى مقهى «الميرا» استقبله اصداقاه بضحكات السخرية ويصبح فيه أحدهم أو آخر: «مرحب يا دكتور!»

وافتعلت كل هذه الاحاسيس السوداء في قلبه حتى حالته قطعة من الفحم فغادر المقهى ذات مساء بعد ان افرط في الشراب، وسار مترنحا إلى بيتها.

وفتحت له عليه الباب ثم تراجعت خطوة، وقد ارتسم الذعر في عينيها، ثم وقفت في مكانها كأنها تصده عن الدخول.. ودخل عادل واغلق الباب وراءه ثم قال بصوته المخمور:

وحشتيني يا عليه.. قلت لما آجى اشوفك!

وقالت وهي لا تكاد تبتسم:

ده وقت يا عادل حد يزور فيه حد..

وابتسم عادل وقد خطا نحوها خطوة:

انا خلاص بقيت حد!

وقالت عليه وكأنها تربت عليه حتى لا تنفجر ثورته:

انت طول عمرك صديق.. صديق عاقل وتخاف عليه..

وترنح الثمل:

اهى حكاية صديق دى هى اللى بتجنتى منك.. صديق ايه

يا اخواتى.. ويا ترى الدكتور خالد صديق برضه، ولا..

وتجهم وجه عليه وانطلق الغضب في عينيها حتى أصبحت

كالقطة المتوحشة، وصرخت:

مالكش دعوة بالدكتور خالد.. على الاقل هو راجل احسن

منك وما بيحيش يخطب عليه بالليل وهو سكران..

وضحك عادل:

انا كمان راجل.. راجل ونص، ومتهيا لى ان الراجل مش

ممکن يكون صديق لست. صديق دى بايخة قوى يا عليه.

وعيبى انى رضيت بحكاية الصداقة دى وطاعتك فيها ..
وخطا نحوها خطوة اخرى، فمدت ذراعها تبعده بها وهى
تصرخ:
عادل..

فأكره الليلة اللى قبل ما نكون اصدقاء.. كنا برضة فى
الأوضة دى، وفى الحقة اللى هناك دى.. الليلة دى بس اللى
حسيت فيها انك بتاعتى ويعديها ضعت منى بتغفيلى.. من
يومها بدور عليكى مش لاتيكي..
واحست عليه ان ماضيها كله قد انتصب امامها.. اسود
جبارا يصفعها فى قسوة مجتونة، وتحملت الصفعات فى
استكانة واستسلام كأنها تكفر بها عن ماضيها، وقالت فى
رجاء:

اعمل معروف يا عادل بلاش الكلام ده.. سيبنى دلوقت من
فضلك.. ريتا يهديك..
اسيبك لمن؟

لنفسى، لذلى، اللهم اللى انا فيه..

انا هم يا عليه؟!

قالت ودموعها فى عينيها:

لا.. انت مالکش ذنب.. الذنب علىّ انا..

ويكت، وغطت وجهها بكفيها وهى تنتحب..

ووقف عادل مذهولا كأنه لا يدري سببا ليكائها، وسكت
برهة كأنه لا يصدق دموعها ولا يريد ان يستسلم لها، ثم رق
صوته كأن الخمر قد تبخرت من فوق شفقتيا، ووضع يدين

رقيقتين فوق كتفيها، وقال فى أسف:

انا مضايك للدرجة دى يا عليه؟!

ولم ترد واخذت تشهق وسط دموعها..

كفاية يا عليه.. اذا كنت عايزانى انزل، مش حنزل الا لما

تسكتى..

ورفعت إليه دموعها، قائلة وظل ابتسامه بدأ يطوف

بشفقتها:

انا تعبانة يا عادل.. ما تتصورش تعبانة اذ اية..

تحبى انده الدكتور؟!

لا.. الدكتور كاتبلى على دوا منوم، حاخده دلوقت يمكن

انام..

قال فى ضعف:

تصبحى على خير يا عليه. انا أسف.. طول عمري اغلط

معاكى، وطول عمرك تسامحينى.. احلفلك انى مش حاغلط

تانى ابداء.. وارجوك تصدقينى..

ولم يبق من بكائها الا آثار دموعها، واغتصبت من شفقتها

ابتسامه ترد بها عليه وكأنها حمد الله:

مسامحك يا عادل.. وحافضل اسامحك على طول.. ريتا

يسامحنا احنا الاتنين..

وقال عادل وهو يتجه الى الباب ورأسه الى الارض، كأنه

افاق لنفسه ليرى جريمة ارتكبها:

تصبحى على خير..

وقالت وهى تغلق الباب وراءه:

تصبح على خير.. كتر خيرك!
واستندت ظهرها الى الباب وكأنها تلتقط دموعها، ثم
اسرعت الى فراشها ودموعها تسبقها، وانخرطت من جديد فى
البكاء..

ودق جرس التليفون..

وكانت تعلم انه خالد.. ولم ترد.. انما استمرت فى بكائها،
وكلما دق جرس التليفون ارتفع نحيبها، كان دقاته سيات تمزق
جسدها، وتشبثت بوسادته، حتى لا تنطلق يدها وتلتقط
السماعة وتحرم جسدها من السياط.

انها لا تستطيع ان تحادثه الآن.. انها احقر من ان تستحق
قطرات من صوته فى اذنيها.. انها مدنسة.. انها امرأة خاطئة
يلاحقها ماضيها..

ماذا تقول له..

وهل تقول كل شىء.. كل ما حدث..

وهل يبقى لها بعد ان تعترف له..

هل يظل على حبه بعد ان يعرف انها اخطأت.. وان خطيئتها
كانت مع صبي صغير!

وسكت جرس التليفون بعد ان تعب من طول الاحاح..
وتوقفت عن بكائها برهة، ورفعت رأسها عن وسادتها والتفتت
إلى التليفون كأنها تستحلفه ان يعود إلى الرنين، وان يعود إلى
ضربها بالسياط.. ثم سقطت منها رأسها فوق الوسادة،
وعادت تبكى..

وقامت من فراشها مع الفجر.

وجمعت بعض ثيابها والقثها بلا ترتيب فى حقيبة كبيرة، ثم
اغلقت الحقيبة وارتدت ثوبها فى عجلة كأنها تخشى ان يفوتها
القطار، أو كأنها تخاف ان يقتحم عليها البيت شيطان.. ولم
تقف امام المرآة الا ريثما جمعت شعرها فوق رأسها، ثم حملت
الحقيبة بيدها، وخرجت من البيت واغلقت وراءها الباب
بالمفتاح..

وذهبت إلى بيت امها..

ونظرت اليها امها من وراء غلالتها القاتمة فى دهشة، ثم
القت نظرتها فوق الحقيبة الكبيرة التى تحملها.. ثم ابتسمت..
ابتسامه واسعة كأنها تنفخ بها الصدا الذى علا شفيتها من
طول ما اطيقتها..

ووقفت عليه امامها حائرة مرتبكة لا تدري ماذا تقول.. ثم
حاولت ان تتكلم.. حاولت ان تقول أى شىء.. ولكن امها
ضمتها الى صدرها فى لهفة ولم تترك لها مجالاً للكلام..

وسارت بجانبها الى غرفتها التى قضت فيها طفولتها
وصباها..

كانت الغرفة كما تركتها منذ خمسة عشر عاماً، لم يتغير
فيها شىء.. نفس الاثاث ونفس الصور المعلقة على الجدران،
حتى صور نجوم السينما..

واحست انها كانت فى رحلة طويلة شاقة وعادت لتستريح..
والقت بنفسها فوق فراشها واغمضت عينيها كأنها تحمد الله
على سلامتها.. بينما امها تفتح الحقيبة وتخرج منها الثياب
وتضعها داخل الدولاب.

وقفزت عليه من فوق الفراش قائلة فى فرح:

ماما.. أنا حاقعد هنا على طول!
 والتفتت إليها امها وابتسامتها فوق شفتيها:
 طبعاً يا بنتي.. انا قاعدة مستنياكى من يوم جوزك ما
 مات.. الحمد لله على السلامة!
 وعادت عليه تستلقى على الفراش، وقد احست ان كل شيء
 فيها قد هدأ.. روحها وعقلها وضميرها.. ثم مرت بها غمامة
 سوداء، وقطبت حاجبها من فوق عينيها، واحست انها بدأت
 تتعذب كما تعذبت ليلة الأمس، فقامت مسرعة وخرجت من
 الغرفة وامها تلاحقها بنظرات صامتة، وامسكت بسماعة
 التليفون وحادثت خالد:
 خالد.. انا باكلمك بدرى علشان اقولك انى عند ماما..
 جيتى عندها من امبارح؟
 لا.. جيت لسه دلوقت..
 امال كنت فين امبارح بالليل.. ضريتك تليفون ما حدش
 رد!
 عارفه.. ما كنتش قادرة ارد على التليفون..
 كان عندك ضيوف؟
 لا..
 امال مارديتش ليه؟
 لازم اشوفك علشان اقولك.. لازم اشوفك دلوقت حالاً!
 انا رايح المستشفى دلوقت!
 انا فى حالة خطرة يا خالد.. حالتى اخطر من اى مريض
 فى المستشفى.. اعمل معروف ما تسبنيش لوحدى ولو دقيقة

واحدة..
 مالك.. حصل ايه؟
 ما اقدرش اقولك فى التليفون.. لازم اشوفك حالاً!
 حافوت عليكى..
 حاتلقينى قدام الباب!
 والقت سماعة التليفون، واسرعت الى امها ومن حولها
 زوية من خواطرها:
 ماما.. انا نازلة دلوقت وجاهه بعد نص ساعة!
 مش تستنى لما تفطرى!
 مش حاقدر..
 ليه.. رايحة فين؟
 ما تسالينيش.. وحياتى عندك ما تسالينيش!
 وعادت الغلالة القاتمة تطوف بوجه الأم..
 ونزلت عليه، كما هى ودون ان تلتفت الى مراتها.. ووقفت
 فى انتظار خالد ثم اخذت تروح وتغدو امام الباب، وعقلها
 ذاهل عنها، وامام عينيها صور مما ستقوله وما سيترتب عليه.
 وجاء خالد فى سيارته..
 وقفزت داخل السيارة، دون ان تحييه تحية الصباح، ولم
 تنظر ليه بل ظلت تنظر الى امامها، كأنها لا تستطيع ان
 تواجهه بنظراتها، وقال خالد وهو يقود سيارته الى مكان
 هادىء وابتسامته الطيبة تملأ وجهه:
 انت ما نميتش امبارح؟
 وقالت فى اقتضاب:

لأ..

ليه.. خيرا

والتفتت إليه كأنها قررت ان تنفجر:

خالد.. لازم اقولك على حاجة.. انت متعرفش حاجات كتير
عنى.. فيه حاجات لازم تعرفها قبل ما تحبنى..

وقال دون ان يسحب ابتسامته، ودون ان يبدو عليه انه يقدر
خطورة الموقف:

انا حبيتك وخلص..

انت حبيت واحدة فاكر انها ملاك.. فاكر انها طاهرة
شريفة.. انا مش ملاك يا خالد.. انا مش..

ووضع خالد اصبعه فوق شفثيها، وقال وهو يقطر طيبة
وحنانا:

انا حبيتك زى ما انت.. حبيتك وانت عيانة..

وصاغت عليه:

لازم تعرف كل اللي كنت عيانة بيه، وكل اللي حصل فى
عياي علشان تعرف تعالجنى، وتعرف تحبنى..

قال وهو لا يزال هادئا:

بالعكس فيه حاجات كتير من مصلحة الدكتور انه يجهلها
لانه لو عرفها حيتلخم وحتتعدق الدنيا قدامه، ويمكن يلخبط فى
العلاج.. مش ساعات الواحد بطنه توجهه وياخذ شربة يقوم
بخف.. الواحد ده لو راح لدكتور حيفضل يكشف عليه ويحترق
بين اناصارين والمعدة والكبد والمصران الامور، ويعالج فيه
شهر وشهرين ويمكن بعد كده ما يخفش وتفضل بطنه توجهه

على طول.. انت مش سمعتى عن الفلاحين اللي لما الواحد
منهم تجيله حمى يقوم ياكل فسيخ ويخف، اهو ده لو راح
لدكتور حيتلخبط فيه ويغضل يقوله دى حمة شوكية، لا دى
تيفود، لا دى انفلونزا، ويمكن يموت فى ايديه.. وبعد ألف سنة
عرفنا ان الفلاحين كانوا اشطر من الدكاترة وان الفسيخ ده
هو البنتسلين، وان الجهل نور.. جهل الفلاحين، وان الدكاترة
لو كانوا عاقلين كان لازم يفضلوا جاهلين زى الفلاحين
علشان يؤمنوا بأهمية الفسيخ فى علاج الحمى..

وقالت عليه فى عصبية وكأنها لم تعد تحتمل:

ارجوك يا خالد بلاش فلسفة.. ده مش وقته.. لا انت فلاح
ولا انا فلاح.. وانا ما احبش الفسيخ ومش عايزاك تعالجنى
بيه.. لازم تعرف كل حاجة عنى وتعالجنى بالبنتسلين، اذا
رضيت بعد كده انك تعالجنى..

قال خالد وهو يحاول ان يضحك:

يا ستى انا من المؤمنين بالفسيخ بالجهل.. حد شريكى..
كل اللي لك عندى انى اخفك!

قالت وهى على وشك البكاء:

خالد.. وحياتى عندك لازم تسمعنى، لازم تعرف كل حاجة..
اذا ما كنتش علشان اريحك فعلشان اريح نفسى.. مش حاقد
اشوفك ولا اقابلك الا لما اعترف لك..

قال فى لهجة جدية:

اعتبرى انى اعرف عنك كل حاجة.. يمكن اكون عارف اكثر
مما تتصورى.. انما مش عايزك انت تقولى حاجة.. بعد خمس
سنتين حاسمك تقولى كل اللي عايزه تقولىه..

قلت فى ضعف:

وحافضل تعبانه كده خمس سنين؟
تاكدي انك مش حتتعبي ابدا.. سيبى الموضوع ده ليه أنا..
كل اللي اطلبه منك ان تفضلى تحبينى..
احبك بس!

ورفعت إليه عينين ملؤهما الحب.. وقال وهو يضمها إليه:
شوفى يا ستى.. المهم ان احنا نعلن خطبتنا النهارده..
ونتجوز بعد شهرين علشان اقدر أخذ اجازة من المستشفى..
...

وصاحت عليه فى زهول:

نتجوز؟

انت لسه حتفكرى؟!

نتجوز النهارده؟

طبعاً النهارده.. انت مش حاسه بالمشكلة الكبيرة اللي
خلقتيها..

مشكلة ايه؟!

انت مش رحت عند ماما، وحتقعدى عندها؟

ايوه..

طيب واقابلك عندها ازاي واخرجك من البيت ازاي، اذا ما
كناش مخطوبين.

اذا كنت عايزنى ارجع بيتى تانى، أنا..

لا.. بالعكس، ده انا مستنى من زمان انك ترجعى تقعدى
مع ماما..

ليه؟

لان قعادك لوحداك كان غلط، وكنت متأكد انك مش ممكن
تستمرى فى الغلط ده.

واحتت عليه رأسها كأنها خجلة من نفسها، وقالت فى
صوت خافت:

صحيح.. كان غلط كبير!

وقال ضاحكا:

كل العيانيين بيغلطوا!

ثم مد يده فى جيبه واخرج علبة صغيرة مكسوة بالقطيفة،
وفتحها ليبدو فيها خاتم الخطوبة..

ونظرت عليه فى دهشة وقالت كأنها طفلة يطير بها الفرح:

جيت الخاتم ده امتى؟

من يوم ما جيتك البيت.. وقلت لك انى باحبك.. اقرى

التاريخ اللي مكتوب عليه

وقرات التاريخ:

ده تاريخ اول يوم عالجتنى فيه..

من يومها وأنا باعتبار نفسى خطيبك

والقت نفسها فوق صدره، ثم رفعت وجهها إليه وقبلته فى

كل موضع من وجهه.

□□□

واعلنت خطوبة عليه وخالد..

ومرت ايام عديدة لم تشعر بها عليه من فرط سعادتها..

كانت تخرج مع خالد كل يوم ليطوفوا بالحوانيت أو يذهبوا الى

السينما، أو يتناولوا العشاء في احد الملاهي.. ولم تكن سعادتها فيما تراه في الحوانيت أو فيما تشهده على شاشة السينما أو داخل الملهى، بل كانت سعادتها كلها في صحبتها لخالده.. وكجانت ترى بجانب كل ثوب تتنقيه رباط عنق لخالده، وفي كل فيلم تشهده نجما سينمائيا يشبه خالده، فإذا ما دخلت ملهى أو مطعمنا لم تر احدا يقاس بخالده.. ولم يقف طويلا امام ثوب أو امام قطعة من الاثاث، ولم تشعر بالحيرة وب حاجتها الى استعمال ذوقها كله، قدر ما وقفت واحترت وهي تختار لخالده «البيجاما» و«الروب دى شامبر» اللذين ستهديهما له ليل الزفاف..

يوم واحد اهتمت سعادتها فيه.. كانت تسير في شارع قصر النيل وذراعها في ذراع خالده.. وفجأة لمحت عادل متجها نحوهما.. لمحت ماضيها.. وارتجفت وارتبكت خطواتها.. ولم تدر ماذا تفعل ولا ماذا تقول..

ولكن عادل، قبل ان يصل اليهما، نكس رأسه الى الارض ثم تشاغل عنهما وعبر الطريق الى الرصيف المقابل.. وتنهدت في ارتياح..

وعرفت ان الزواج، ومجرد اعلانه، كاف ليحميمها من ماضيها كله.. هذه الورقة الصغيرة التي يوقعها رجل معمم نظير جنيه أو اثنين، تستطيع ان تقيم منها حصنا يقف سدا بينها وبين كل ما تخافه..

وانتظمت خطوط سعادتها حتى رسمت من حولها جنة.. وحمدت الله..

وعندما فاجأها خالد يوما ووقف وراءها ووضع كفيه فوق عينيها، وقال مداعبا:

أنا مين؟

تظاهرت بالتخمين، واخذت تتحسس كفيه باصابعها، ثم لمست خاتم الخطوبة في اصبعه، وقالت في صوت كنغم الناي:

انت عمري!



أشرف خاتمة

الرجل الذي لم يكن يملك المال ويملكه اذ هو لم يملك المال. فاستلموا
فيما نراه من الموانع التي هي في الحقيقة للموت. فليس
الرجل الذي لم يملك المال كان في الحقيقة للموت. فليس
الرجل الذي لم يملك المال كان في الحقيقة للموت. فليس
الرجل الذي لم يملك المال كان في الحقيقة للموت. فليس
الرجل الذي لم يملك المال كان في الحقيقة للموت. فليس
الرجل الذي لم يملك المال كان في الحقيقة للموت. فليس
الرجل الذي لم يملك المال كان في الحقيقة للموت. فليس
الرجل الذي لم يملك المال كان في الحقيقة للموت. فليس
الرجل الذي لم يملك المال كان في الحقيقة للموت. فليس
الرجل الذي لم يملك المال كان في الحقيقة للموت. فليس

بعضهم الآخر من شأنها
كانت تسمى في التاريخ وقد انزلها في تاريخ
التي كانت لها في تاريخها من قبل
التي كانت لها في تاريخها من قبل



قصةنا يا عمري

ان فى الفنان قسوة لا غنى له عنها. قسوة
الرسام عندما يضع امامه امرأة عارية ويكشف
عن مفاتن جسدها بريشته، ثم يعرضها على
الناس.. وقسوة الكاتب عندما يسرق سر فتاة أو
سر رجل ويصيغه فى قصة ينشرها على
العالم.. بل احيانا يقسو الفنان على نفسه

فيستغل اعز عواطفه واعز الناس إليه ليشبع بهم شهوة قلمه أو
شهوة ريشته..

وقد شعرت بهذه القسوة وأنا أكتب قصصى التى اعتدت
ان اختار ابطالها من اشخاص واقعيين.. شعرت بها وحاولت
دائما ان اكفر عنها.. وتماديت فى التكفير حتى جعلت من
نفسى عبدا مأمورا لبعض البطلات وبعض الابطال الذين
اغتصبت قصصهم وذبحتها بطرف قلمى.. ولكن ماذا يجدى
التكفير بعد ان تقع الجريمة؟!

وها أنا ارتكب جريمة اخرى..

قصة.. اذبح فيها سر سيدة وثقت بى، وسر رجل احترمه
واجله..



التقت به لقاء عابرا، وتحادثا حديثا عابرا، ثم لم تستطع ان تنتزع صورته من رأسها، بل احسنت بهذه الصورة تنحدر من امام عينيها يوما بعد يوم إلى ان تستقر في قلبها..
انها زوجة..

وهو زوج..

كلاهما تزوج لانه كان لابد له ان يتزوج.. لم يكن للحب دخل في زواج كل منهما، ورغم ذلك فقد كان كل منهما سعيدا في زواجه.. هذه السعادة الهائلة التي تيسر لك حاجتك وتلفك بالسكينة والقناعة، ولكنها لا تفتح قلبك ولا تهز اعصابك..

إلى ان التقيا هذا اللقاء العابر، وتحادثا هذا الحديث العابر.

وكان يمكن ان يتكرر بينهما اللقاء، وان يتطور اللقاء إلى خلوة، وان تتطور الخلوة إلى كل شيء، فكلاهما ليس محافظا، ولا متعلقا باهداب الدين، والوسط الذي يعيشان فيه يتيح للزوجة ان تنفلت من زوجها، ويتيح للزوج ان ينفلت من زوجته.

ولكن اللقاء لم يتكرر، وظل جبهما بلا شيء..

لقد عادت بعد ان رآته وقد قررت ان تنساه..

وعاد وقد قرر ان ينساها..

ولكنها لم تستطع ولم يستطع

وبعد ليل طويل ارق، امسكت بسماعة التليفون واتصلت به في مكتبه.. وسمعت صوته يناديها: «ألو.. ألو» وسرى الصوت في اعصابها حتى وصل الى قلبها فخلعه وقذف به الى حلقها فانحبس صوتها وارتعشت يدها فانقت بسماعة التليفون الى

مكانها وهي مبهورة الانفاس..

وظل يناديها حتى بعد ان سمع صوت السماعه تلقى الى مكانها ألو.. ألو.. ولم يكن يدرى من ينادى، ولم يدر سر اصراره على النداء وهو الرجل الذي لم يكن يتحمل محادثة تليفونية خارج دائرة عمله، ولم يكن يتحمل جرس تليفونه عندما يدق خطأ الا ثائرا لاعنا.. لم يكن يدرى انه ينادى املا يحاول ان ينكره على نفسه، وينادى حيا حاول ان يخمده في قلبه..

وعاد الليل يطول بها ويؤرقها.. وخارت مرة ثانية وامسكت بسماعة التليفون، وعندما احسنت بصوته يسرى في اعصابها ويخلع قلبها ويقذف به الى حلقها، قالت في صوت ضعيف كانه الحفيف:

ألو..

مين؟

أنا..

ولم يسألها: من انت، بل سكت برهة كأنه يرتوى بعد ظمأ طويل، وقال في صوت حنون وقد اقتربت شفاته من السماعه وكأنه يشرب من صوتها:

لقد انتظرتك طويلا..

انت ايضا؟!

حاولت الا انتظرك فلم استطع..

أنا ايضا..

لقد كنت ابحث عنك في كل شارع امر به وفي كل مجتمع اسعى إليه، وكنت انكر على عيني ان تبحثا عنك.. وانكر على

نفسى ان اسعى وراءك.. ولكن الانكار لم يجد فى شيئا.. انى
اتعذب بك..

انى اتعذب بك..

تعالى نفر من العذاب..

إلى أين؟

وسكت قليلا وربما تنبه فى هذه اللحظة إلى صورة زوجته
وولديه الموضوعة فوق مكتبه، ثم قال فى ياس..

لست ادري.. ان العذاب يحيط بى حتى الافق!

وسكنت وكأنها تلتقط بموعها برموش عينيها، ثم قالت:

قل لى انى لم اخطىء اذ حادثتك..

كلانا لم يخطىء.. فأقل حق للمعذبين ان يشكروا العذاب.

قل اننا لن نخطىء ابدا.

لن نخطىء..

وتركت سماعه التليفون تسقط من يدها، ثم انفكأت على
وجهها تبكى.. وتركته ساهما واجما يبحث بعينيه فى فضاء
عرفته وكأنه يتبع قلبه وهو يطير منه..

وحادثته فى اليوم التالى، واليوم الذى يليه.. وأصبح
حديثهما لقاء يتكرر كل صباح وكل مساء، ثم امر بتركيب آلة
تليفون خاصة فى مكتبه لتحدثه خلالها وكأنه يضمن على مكان
لِقائهما من ان يشغله انسان آخر..

وكان لقاء يستعد له وتستعد له، فكان لا يذهب إلى مكتبه
الا وهو حليق الذقن مرتب الشعر وقد اختار خير حلله، وانتقى
رباط عنقه بعناية، ووضع المنديل فى جيب سترته ودلاه باناقة،

ثم يجلس إلى مكتبه وهو فى حالة عصبية.. ينظر إلى التليفون
بين الحين والحين، ثم يضغط على السماعه وهى فى مكانها
مرة ومرتين ليتأكد انها فى موضعها تماما، وقد يرفعها الى
أذنه ليتأكد ان التليفون ليس به عطب.. فاذا ما دق الرنين
اخيرا التقط السماعه فى لهفة وغاب فى حديثه معها ساعة أو
بعض ساعة، حتى اذا ما انتهى موعده بدأ يفكر فى عمله..

وكانت هى ايضا لا تحدثه الا وهى فى اتم زينتها، حتى
الكورسيه والشراب والحذاء كانت تضعها جميعا قبل ان تلتقى
به عبر الاسلاك.. وكانت اذا ما حادثته فى الصباح ارتدت ثوبا
صباحيا، واذا ما حادثته فى المساء ارتدت ثوبا مسائيا.. ثم
كانت تصف له نفسه وما ترتديه، ويصف لها نفسه وما
يرتديه، ثم يتشاكيان، ويتضحكان، ويتحدثان فى كل شىء..
كان حديثهما حبا خالصا، ولم يكونا يغفلان فيه الا
موضوعين:

زوجها، وزوجته.. ثم املهما فى اللقاء، فقد كان حريصا
على وعده الا يطالبها بلقاء، وكانت غنيدة فى حبها فلم تحله
من وعده..

كانا روحين يلتقيان فى الفضاء فوق اسلاك التليفون..
ولكن روحاهما كانتا تعودان احيانا الى جسديهما فيحس كل
منهما بشفتيه تختلجان وكأنهما يتحدثان عن شفتي الآخر،
ويحس كل منهما بصدرة يتلوى وكأنه ينادى صدر الآخر،
فكانا يغمضان اعينهما ويقرب كل منهما بشفتيه من سماعه
التليفون ويميل عليها بصدرة ثم يغيبان فى قبلة من الوهم.
وكان الخيال يستبد بهما احيانا اثناء احاديثهما التليفونية،

حتى كان يلقي بنفسه بين ذراعيها، وتلقى بنفسها بين ذراعيه، وتطوف بشفتيها فوق وجهه وتمسح وجنتيه بوجنتيها، وتداعب شعره باصابعها، بينما يعصرها في صدره ويسكب انفاسه في اذنيها ويطوف بكفه المحمومة فوق كتفيها ..

وكانت تقول له في سماعه التليفون، وهي لا تزال مغمضة العينين منتشية بخيالها، وصوتها يكاد يذوب في نشوتها:

يا لك من رجل.. انك تكاد تحطم ضلوعي.

فيقول والنشوة تحشرج صوته:

يا احب من لي.. دعيني اقبلك.. اين شفتاك!

وكل ذلك في التليفون!

وأكثر من ذلك..

لقد سافر زوجها إلى أوروبا ليغيب اسابيع، بينما سافرت زوجته إلى الاسكندرية لتغيب اياما، فاصبحا يلتقيان طول الليل.

كان يرتدى البيجاما ويجلس في سريره ويجانبه التليفون في انتظارها..

وكانت ترتدي ثياب نومها، وتتعطر، ثم تحادثه..

ويطول الحديث حتى مطلع الفجر، ثم تقول له:

اغض عينيك، فاني اريد ان اخلع الروب ديشامير..

ويغمض عينيه فعلا..

وتقول:

اظن يجب ان ننام..

ويدخل تحت الغطاء ويدخل تحت غطاءها، ثم تصرخ

ضاحكة:

ايه ده.. رجلك زي الثلج!

وينامان وكل منهما محتضن الآخر بخياله، بينما سماعه

التليفون مرفوعة من مكانها بجانب رأسه.. ويجانب رأسها..

ويستيقظ على صوتها في سماعه التليفون وهي تقول له:

صباح الخير!

فيرد عليها بقبلة..

ثم يغيب عنها ريشما يفتسل، ويعود إليها لتنتقي له الحلة

التي يرتديها، ورباط العنق الذي يربطه، ثم تنتقي له طعام

افطاره، ثم تقبله مودعة قبل ان يذهب الى مكتبه..

وقد مضى على هذا الخيال ثمانية شهور، لم يلتقيا خلالها

ابدا، بل كان كل منهما اذا علم ان الآخر في مكان حرص الا

يذهب إليه، ورغم ذلك كان كل منهما يسير في الطريق وعيناه

في وسط رأسه يبحث عن الآخر عسى ان تجمعه به الصدفة

في نظرة..

لم يلتقيا إلى اليوم لقاء حبيبين، ولا لقاء صدفة.. ولا ادري

ان كانا سيكتفيان بخيالهما ام سيفران من العذاب الى مكان

لقاء..

ولكن هل هي خائنة لزوجها، حتى اليوم؟

وهل هو خائن لزوجته؟

انها اشرف خائنة!

وهو اشرف خائن!

٥٥٦
٧

حتى كان يأتي بقلبه بين دراهمها وتلق بقلبهها بين خاتمتها
وتطرد وتفتتتها فوق وجوههم...
الاولى من العيون باليد...
من يراهها في الدنيا...
١٤٤

الفهرس:

الصفحة

- أين عمري ٥
- أشرف خائنة ١٣٥

رقم الايداع: ٩٧/٨٦٤١
 الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977-08-0656-0